جامعة إفريقيا العالمية

المركـز الإسلامـي الإفريقـي

المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية
(بمناسبة مرور (١٤) قرناً على نزوله)

٢٠ - ٢٢ محرم ١٤٣٣هـ ، الموافق ١٥ - ١٧ ديسمبر ٢٠١١م
الخرطوم - السودان

لجنة الأوراق والسكرتارية

الأوراق العلمية

(الكتاب الثالث)

الإخراج الفني والتصميم
الأستاذ: طارق فاروق عبدالله هارون
الأستاذ: عبدالرحمن محمد الوسيلة

تصميم الغلاف
الشيخ الأمير

محرم ١٤٣٣هـ / نوفمبر ٢٠١١م

لجنة الأوراق والسكرتارية

١) الدكتور/ عمر أحمد سعيد رئيساً .
٢) الدكتور/ عبدالقيوم عبدالحليم الحسن رئيساً مناوباً.
٣) الدكتور/ كمال محمد جاه الله عضواً .
٤) الدكتور/ محمد عبدالقادر محمد عضواً
٥) الدكتور/ يوسف خميس أبورفاس عضواً .
٦) الدكتور/ المعتصم محمد الأمين عضواً .
٧) الأستاذ/ طارق فاروق عبدالله هارون عضواً مقرراً .
٨) السماني علي أحمد عضواً .

المحتويات

م	المـــــوضـــوع	رقم الصفحة
١.	**المحتويات**	أ
٢.	**مقدمة الكتاب**	ب
٣.	**تقديم الكتاب بروفسور حسن مكي محمد أحمد**	ج
٤.	**العلم والمعرفة بين نموذجين الظاهرة السبئية حالة تفسيريه** **(أ.د. محمد الحسن بريمة إبراهيم- السودان)**	١ ـ ٨٤
٥.	**تدبر القرآن الكريم (أهميته، أسبابه، موانعه، وفوائده)** **(د.علي هارون محمد- نيجيريا)**	٨٥ ـ ١١٠
٦.	**الحوار في القرآن الكريم وتطبيقاته في الحياة ونشر ثقافته في المجتمع (د. الأمين الصديق عوض الكريم- السودان)**	١١١ ـ ١٣٨
٧.	**المقرئ الشيخ القوني حسن عمر ودوره في نشر القراءات في وسط إفريقيا (القوني إدريس أحمد عثمان –تشاد)**	١٣٩ ـ ١٥٨
٨.	**المناهج الدعوية في القرآن الكريم** **(د.معاذ محمد عبد الله أبو الفتح البيانوني –سوريا)**	١٥٩ ـ ١٩٠
٩.	**الإعجاز القرآني العلمي في الإحصاء وأهميته وشموليته** **(د.سراج عثمان عمر محمد -السودان)**	١٩١ ـ ٢١٦
١٠.	**الإعجاز الكوني للقران الكريم (حقائق كونية جديدة تشهد على إعجاز القرآن في هذا العصر) (عبد الدائم الكحيل- سوريا)**	٢١٧ ـ ٢٥٧
١١.	A CRITICAL STUDY OF SOME CONTEMPORARY APPROACHES TO HUMAN RIGHTS IN THE QUR'AN (Dr. Suleman Dangor- South African)	**1 - 33**

(أ)

مقدمة الكتاب:

نضع بين يديك- عزيزي القاريء- هذه المجموعة من الأوراق العلمية التي كتبت بأقلام متنوعة، قد تكون مختلفة في تناولها للقضايا التي تطرحها، لكن يجمعها أنها تصب في بحيرة واحدة تمثل محاور المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في الحضارة الإنسانية الذي تداعت له أقلام الباحثين بمختلف مشاربهم وتخصصاتهم.

الحق أن هذه الأوراق المشار إليها ما كان لها أن تكون بهذه الصورة التي عليها الآن لولا اجتيازها لعدد من المحطات، التي تأتي في مقدمتها، تحكيم مستخلصها وإعادة تحريرها عبر لجنة مختصة، ومن ثم تحكيم الورقة نفسها عبر لجنة مختصة أيضا، ومن ثم تصحيحهاً لغوياً بواسطة لغوي متميز في مضمار التدقيق اللغوي.

ارتكازاً على ذلك ندرك مدى الجهد الذي بذل في إعداد محتويات هذا المجلد من الأوراق العلمية التي نأمل أن تقع موقعاً حسناً عند القرّاء فذاك ما نصبو إليه، والله ولي التوفيق.

تقديم الكتاب

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يؤدي هذا المؤتمر العلمي مهمته، كاملة في التعريف بدور القرآن في تشكيل الحياة الإنسانية على استحالة ذلك بالطبع. لأن لهذا الكتاب الإلهي إسهاماته التي تبدو وكأنها لا متناهية في تشكيل التاريخ الإنساني، وتشكيل الفضاء العام وتشكيل العقل والوجدان وكل ما يتعلق بالإنسان ودوره في هذه الحياة.

كل ذلك لان القرآن خطاب الله الكامل للإنسان ،الكتاب الجامع المفتوح للدراسة والتأمل في كل زمان ومكان ،هو مصدر المعارف الدائم يَعْظُم من يأخذ منه ،ويَشْرُف من يلجأ إليه، مورد الخير ومنبع البركة والنعمة وهو الحبل المتين والقوة التي لا تلين. لكل ذلك لم ينقطع الاهتمام به والاحتفاء بعظمته منذ أن نزل وسيظل كذلك إلى ما شاء الله. كما أن الإسلام، حتى وفي ظروف الكبت والإقصاء والتهميش، ظل بفضل هذا الكتاب يُمثل المرجعية للأفراد والمجتمعات سراً وباطناً في ظل أوضاع الاضطهاد والحرب ومحاكم التفتيش التي ما تزال دائرة في بعض بقاع الأرض.

والحق أن اهتمام جامعة إفريقيا وأهل السودان به لم يأت من فراغ، وإنما يعود ذلك إلى الأهداف والوجهة الأولى للمركز الإسلامي الإفريقي، نواة هذه الجامعة، التي احتضنها أهل السودان شعباً وحكومةً، وآزرهم عليها قوم كرام وحكومات وهيئات كريمة ،وهي ذات الجهات التي تدعم اليوم مؤتمر القرآن الكريم.

ولا يزال القرآن الكريم من أكبر اهتمامات جامعة إفريقيا المتمثلة في مطلوبات الجامعة المهولة من القرآن ودراساته، وحلقاته العامرة في مساجدها وقاعاتها.

"المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية" جاء عنواناً لهذا التجمع القرآني الكبير . عنواناً تنطوي تحته محاور تركز في مجملها على إسهام القرآن في حضارة الإنسان في كل مجالات الإسهام . نتج عنه هذه الأوراق التي تصب بحوثها في خدمه القرآن وإبراز دوره الحضاري.

هـذا المـؤتمر مجـرد محاولـه متواضـعة لقـراءة دور القـرآن في بنـاء المجتمعـات الإسلامية وكذلك معرفة إسهام العلوم التي بثها العقل الإسلامي في إعادة تشكيل العقل الإنساني الذي قاد لحضارة العلمية الحديثة، كما أن القرآن يظل وراء كل حدث كبير، وما التحولات الجارية في العالم الإسلامي اليوم إلا صدىً لهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، لان القرآن وراء ازدهار المساجد ووراء إعمار الشباب لدور العبادة، ووراء العودة لله، والقرآن هو التجويد والعلم والعقل والتدبر، وطهارة اليد واللسان والعفة، وطهارة العقل والبنان وطهارة الجنان– وفي إطار هذه المعاني يجئ هذا المؤتمر.

ولكي يظهر المؤتمر في الصورة اللائقة بعظمة القرآن حرصت الجامعة على البرامج المصاحبة ومن بينها معرض القرآن الكريم الذي يبرز جهود أهل القرآن بالسودان وغيره من البلدان، الجهود الرسمية والشعبية القديمة منها والحديثة.

كما تشمل التظاهرة حدثاً قرآنياً كبيراً تتجمع فيه خلاوي السودان بفسيفسائها وأطيافها المختلفة حول " تُقَّابة القرآن " نار القرآن العظمى التي تجسد تقاليد أهل السودان في تعليم القرآن ودراسته.

بالإضافة لذلك فأن هذه التظاهرة ستشهد مشاركة وفعاليات واسعة من الشخصيات والمؤسسات المعنية بالقرآن محلياً وإقليميا وعالمياً بما يبلور عظمه القرآن وجلاله.

وأنا، إذ أقدم هذا الكتاب للمؤتمرين والقراء وأصحاب الشأن والاهتمام ، لا أشك في أن قيام هذا المؤتمر بهذه الصورة سيجلب الخير والبركة لجامعة إفريقيا ومجتمعها، وللسودان وأهله ودولته، عليه اسأل الله أن يكون في كل ذلك عملاً صالحاً وجهداً مباركاً، وان يكون لهذا الكتاب الذي يحتوي على طائفة من الأوراق المقدمة في المؤتمر فائدة عامة ودور ايجابي في التعريف بالمؤتمر بما يشحذ الهمم ويثير القرائح للإسهام في نجاحه وازدهاره .

واسأله تعالى أيضاً أن يكون هذا المؤتمر مجرد فاتحة لمئات المؤتمرات التي تتناول هذا الشأن.

والله ولي التوفيق،،

بروفيسور/ حسن مكي محمد أحمد

مدير جامعة إفريقيا العالمية

العلم والمعرفة بين نموذجين الظاهرة السبئية

حالة تفسيرية

المحور الأول: الرؤية التوحيدية في بناء العقل العلمي في القرآن الكريم

(بناء العقل العلمي في القرآن الكريم)

إعداد:

بروفيسور/ محمد الحسن بريمة إبراهيم

أستاذ بمعهد إسلامية المعرفية - جامعة الجزيرة

١,١ – المقدمة:

الغرض الأساسي من هذا البحث هو أن نسوق الأسباب التي نرى أنها تبرر مشروع التأصيل المعرفي الذي تتصدى له مجموعة من المؤسسات بداخل السودان وخارجه. ونحن نفعل ذلك، إن شاء الله، من خلال إبراز الاختلاف الجوهري بين النموذج المعرفي (التوحيدي) ونظيره (الدنيوي)، في كل ما أسميناه بأركان المعرفة العلمية التي حصرناها، لأغراض هذا البحث، في خمسة، ولا ندعي أنها جامعة مانعة، وهي:

١/ مصدر العلم

٢/ محتوى العلم

٣/ العالِم

٤/ منهجية العلم

٥/ أهداف (تطبيقات) العلم

إن الطريقة التي نتبعها في هذه الدراسة المقارنة ربما تكون غير مألوفة، ذلك أننا سوف نسعى لاستنباط المكونات الأساسية للنموذجين المعرفيين (التوحيدي) و(الدنيوي) من "رؤية للعالم" تتعلق بالاجتماع الإنساني نستنبطها من القرآن الكريم، ومن ثم المقارنة بينهما. كذلك من المهم أن نؤكد مبكراً أننا عندما نستنبط أهم معالم النموذج الدنيوي من القرآن، سواء كان ذلك في بعده المعرفي أو العمراني، فإننا لا نقصد بأي حال أن يفهم من ذلك أن القرآن يطرحه كخيار للحياة يجوز للناس الأخذ به على سواء مع نظيره التوحيدي، ولكنه يظل خياراً متاحاً لمن يريده ويتحمل تبعات اختياره. أما نحن فنقصد منه الآتي:

أولاً: وكما يقولون بضدها تتميز الأشياء، حيث أن إرجاع الخيار الدنيوي، الذي تقوم عليه الحضارة الغربية اليوم، إلى أصوله المنطلقة من الحكمة الربانية في خلق الإنسان وابتلائه، وإثبات أنه الطريق الذي

يؤدي إلى الخسران في الدنيا والآخرة، يجعلنا في وضع الرافضين له على علم؛ ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

ثانياً: إن الخيار الدنيوي الذي جوهره "تعظيم متاع الحياة الدنيا" له جذور وامتداد في النفس البشرية، كما سوف يتضح لاحقاً، مما يجعل مظاهره السلوكية حاضرة بصورة، أو أخرى، في حياة الفرد والجماعة المسلمة. لذلك ينبغي تحديد معالمه وإنشاء علوم سلوكية واجتماعية مبنية على معطياته المعرفية كجزء أصيل من النظرية السلوكية والاجتماعية الإسلامية الأشمل التي يتكامل في تأسيسها النموذجان، حتى نتمكن من دراسة الظواهر البشرية في المجتمعات المسلمة بصورة أكثر واقعية. بل إن مثل هذه النظرية ذات الصبغة العالمية سوف تمكننا من دراسة المجتمعات الأخرى التي يسودها النموذج الدنيوي، ومن ثم التعامل معها على بصيرة.[١]

ثالثاً: إن إبراز معالم النموذج المعرفي الدنيوي، وإثبات محدوديته بالمقارنة مع نظيره التوحيدي، وأنّ الأخير يستوعبه ويتجاوزه، سوف يطَمْئن الآخذين بالنموذج التوحيدي، وربما يكسب لصالحه المتشككين في جدواه العلمية.

٢,١ – المفاهيم المفتاحية:

لعل أوفق بداية لهذا البحث هي أن نعرّف باقتضاب بعض المفاهيم التي ننطلق منها وهي: الحق، اليقين، الظن، العلم، المعرفة. وسوف نبدأ بالمفاهيم التي نؤسس عليها تعريفنا للعلم، وهي الحق واليقين والظن.

١) الحــق:

جاء في تعريف الحق في كتاب لسان العرب لإبن منظور ما يلي: "الحق نقيض الباطل، وحق الأمر يحقه حقاً، وأحقه: كان منه على يقين. والحق: من أسماء الله عز وجل، وقيل من صفاته".

فهنا إذن ثلاث قضايا، قضية أنطلوجية، قضية إبستمولوجية، وقضية منهجية؛ فالقضية الأنطلوجية تتعلق بالوجود المستقل للحق، أي وجود الموضوع محل النظر وحقيقته كما هي عند الخالق تبارك وتعالى، لا كما يتوهمها الناس. والتحقيق في قولنا هذا هو أن جميع الأشياء التي تقع في عالم الشهادة(مادية، حيوية،اجتماعية،معنوية)، وتلك التي تقع في عالم الغيب خلقها الله تعالى بالحق، لأنه هو الحق، أي أنها تقع بمقتضى الحكمة التي من أجلها خلقت لتؤدي دورها في إطار الحكمة الكلية من خلق السموات والأرض وما بينهما(القضاء والقدر). وهكذا فإن أي شيئ يكون مثار اهتمام البشر وموضع دراستهم، فإن الحقيقة التي يطلبونها من دراسته إنما هي حلقة في سلسلة الحق الذي أوجد ذلك الشيئ، ويربطها ذلك الحق بالحكمة الكلية من الخلق. ولكن بينما الظواهر عند الله تعالى تتم في إطار الحكمة الكلية من خلق الكون والحياة، ومن ثم تكون حقيقتها عنده في هذا الإطار، نجد أن الحق الذي يطلبه البشر من دراستهم لهذه الظواهر يكون عادة جزئياً ومحدوداً، إما لأن الحكمة الكلية من الخلق لا تعنيهم، ومن ثم لا تشكّل مرجعية لدراستهم، وإما لأن ما يستطيعون إدراكه منها محدود بحدود القدرة البشرية. لذلك نستطيع أن نقول إن الإحاطة بكل جوانب الحق في أي ظاهرة من الظواهر، أو قضية من القضايا أمر اختص به الله تعالى، وأن ما يدرك البشر من الحق عن طريق كسبهم من العلم يظل قليلا، ويتسع بقدر اتساع إدراكهم للحكمة الكلية من الخلق، وبقدر تجذّر منهجيتهم المعرفية في تلك الرؤية الكونية الربانية. ونسوق فيما يلي مجموعة من آيات القرآن الكريم التي تثبت وجود الحق، وأنه الذي قامت به السموات والأرض، وأنه مطلوب العلم:

(١) (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾)(الحج)؛

(٢) (وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾)(الحجر)؛

(٣) (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾)(المؤمنون)؛

(٤) (سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾)(فصلت)؛

(٥) (مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾)(الدخان)؛

(٦) (يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾)(ص)؛

(٧) (وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾)(الإسراء)؛

(٨) (قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾)(يوسف)؛

(٩) (نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴿١٣﴾)(الكهف)؛

(١٠) (وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾)(المؤمنون)؛

(١١) (وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾)(سبأ)؛

(١٢) (وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾)(فاطر)؛

(١٣) (فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾)(يونس).

والحق هو أساس الوجود، لأن الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، والحق هو مبتغى العلم، فلا علم في غياب الحق. والعلم إنما أصبح ممكناً لأن الحق موجود في كل ظاهرة من الظواهر، سواء كانت مادية، أم حيوية، أم اجتماعية، أم معنوية، أم غير ذلك. فكل ظاهرة موجودة، يكون ٱلسَّمَٰوَٰتِ خَلَقَ ٱلَّذِي (وَهُوَ وجودها هو في ذاته حق، لأنه من خلْق الله تعالى: خَٰلِقُ ٱللَّهُ قُلِ)(الأنعام)؛ (﴿٧٣﴾ ٱلۡحَقُّ قَوۡلُهُۥۚ فَيَكُونُ كُن يَقُولُ وَيَوۡمَ بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلۡأَرۡضَ)(الصافات)، ومن ﴿٩٦﴾ تَعۡمَلُونَ وَمَا خَلَقَكُمۡ وَٱللَّهُ)(الرعد)؛ (﴿١٦﴾ ٱلۡقَهَّارُ ٱلۡوَٰحِدِ وَهُوَ شَيۡءٖ كُلِّ

ثم يتعلق به العلم، ثم لها حقيقة أو حقائق تعلم بوسائلها المناسبة. ولا نعني هنا الحقيقة المطلقة المتعلقة بالظاهرة، والتي لا يعلمها إلا الله، وإنما نعني الحقيقة الجزئية المحدودة، التي يبحث عنها الإنسان في الظاهرة المعينة، فذرة الماء مثلاً، لها عدة حقائق، كل واحدة منها هي حق في ذاتها، ومعلومة لدينا إما بالتجربة، ، وهناك (H_2O)وإما بإخبار الوحي لنا بها. فهناك حقيقة تركيبها الكيميائي وهو ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَنَّ كَفَرُوٓاْ ٱلَّذِينَ يَرَ أَوَلَمۡحقيقة أنها تدخل في تركيب كل شيء حي: (يُؤۡمِنُونَ أَفَلَا ۖ حَيٍّ شَيۡءٍ كُلَّ ٱلۡمَآءِ مِنَ وَجَعَلۡنَا ۖ فَفَتَقۡنَٰهُمَا رَتۡقًا كَانَتَا وَٱلۡأَرۡضَ)(الأنبياء)، وحقيقة أكبر تتعلق بكون أن الماء كان يوماً ما يحمل عرش ﴿٣٠﴾ عَلَى عَرۡشُهُۥ وَكَانَ أَيَّامٍ سِتَّةِ فِي وَٱلۡأَرۡضَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ خَلَقَ ٱلَّذِي وَهُوَالرحمن: (ٱلۡمَوۡتِ بَعۡدِ مِنۢ مَّبۡعُوثُونَ إِنَّكُم قُلۡتَ وَلَئِن ۗ عَمَلًا أَحۡسَنُ أَيُّكُمۡ لِيَبۡلُوَكُمۡ ٱلۡمَآءِ (هود)، وهناك حقائق أكبر عن ذرة ﴿٧﴾ مُّبِينٌ سِحۡرٌ إِلَّا هَـٰذَآ إِنۡ كَفَرُوٓاْ ٱلَّذِينَ لَيَقُولَنَّ الماء لا يعلمها إلا الله. وما قلناه عن ذرة الماء يصدق على كل شيء خلقه الله)(الصافات).﴿٩٦﴾ تَعۡمَلُونَ وَمَا خَلَقَكُمۡ وَٱللَّهُتعالى، بما في ذلك أعمال الناس: (

القضية الثانية؛ هي قضية إبستمولوجية، أي إمكان وجود العلم بالحق المذكور في القضية الأنطلوجية أعلاه. ونستطيع أن نجزم من القرآن الكريم أنه ما دام الحق موجوداً فإن العلم به موجود أيضاً. ولا علاقة لوجود العلم بإمكان تحصيله من قبل الناس، فهذه قضية تتعلق بالمنهاج، ففي مثالنا السابق عن ذرة الماء تأكد لنا وجود علم يتعلق بثلاث من حقائقها، بعضه تحصلنا عليه عن طريق النظر، وبعضه عن طريق الخبر.

ولأن الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، وجعل العلم سبيلا وحيدا للوصول إلى الحق، فإن العلم بجميع الظواهر، في كلياتها وجزئياتها، سواء كانت في عالم الغيب أو الشهادة، من صفاته سبحانه بِكُلِّ أَحَاطَ قَدۡ ٱللَّهَ وَأَنَّ(الملك)؛ (﴿١٤﴾) ٱلۡخَبِيرُ ٱللَّطِيفُ وَهُوَ خَلَقَ مَنۡ يَعۡلَمُ أَلَاوتعالى: (لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ وَرَبِّي بَلَىٰ قُلۡ ۖ ٱلسَّاعَةُ تَأۡتِينَا لَا كَفَرُواْ ٱلَّذِينَ (وَقَالَ)(الطلاق)؛ ﴿٣﴾ عِلۡمًا شَيۡءٍ مِن أَصۡغَرُ وَلَآ ٱلۡأَرۡضِ فِي وَلَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فِي ذَرَّةٍ مِثۡقَالُ عَنۡهُ يَعۡزُبُ لَا ۖ ٱلۡغَيۡبِ عَـٰلِمِ)(سبأ). بل إن هذا العلم اليقيني بحقيقة ﴿٣﴾ مُّبِينٍ كِتَـٰبٍ فِي إِلَّا أَكۡبَرُ وَلَآ ذَٰلِكَ

ٱلسَّمَآءِ فِى غَآيِبَةٍ مِنۡ وَمَاالظواهر مسجل في كتاب مبين في الملأ الأعلى: (فِى ذَرَّةٍ مِّثۡقَالِ مِن رَّبِّكَ عَن يَعۡزُبُ وَمَا)(النمل)؛ (﴿٧٥﴾ مُّبِينٍ كِتَٰبٍ فِى إِلَّا وَٱلۡأَرۡضِ)(يونس). ﴿٦١﴾ مُّبِينٍ كِتَٰبٍ فِى إِلَّا أَكۡبَرَ وَلَآ ذَٰلِكَ مِن أَصۡغَرَ وَلَآ ٱلسَّمَآءِ فِى وَلَا ٱلۡأَرۡضِ

ولكن هذا العلم اليقيني بحقيقة الظواهر والأشياء التي تثير اهتمام البشر، وتدعوهم إلى البحث العلمي، ليس متاحاً كله لهم، لا في كلياته ولا في جزئياته، وَلَابل ينزل الله تعالى منه بقدر على من يشاء من عباده بما تقتضيه حكمته: (خَزَآيِنُهُۥ عِندَنَا إِلَّا شَيۡءٍ مِّن وَإِن)(البقرة)؛ (﴿٢٥٥﴾ شَآءَ بِمَا إِلَّا عِلۡمِهِۦٓ مِّنۡ بِشَيۡءٍ يُحِيطُونَ)(الحجر). فالعلم بالحقيقة الموضوعية للظواهر متاح ﴿٢١﴾ مَّعۡلُومٍ بِقَدَرٍ إِلَّا نُنَزِّلُهُۥٓ وَمَا للبشر بدرجات متفاوتة، ويمكن تحصيله إما من مصادره التي جعلها الله تعالى مرجعاً للعلم البشرى في عالم الشهادة، وهي الوحي(القرآن،السنة) والكون، وإما بالاطلاع عليه في الكتاب المبين الذي أودع الله فيه ذلك العلم. ومصدرية الوحي والكون هي الأساس للعلم البشري، وسوف نعرض لذلك في موضعه من هذا البحث إن شاء الله.

وهذا الذي ذكرناه يصدق على الظاهرة الاجتماعية بصورة أخص، ذلك أنها، دون غيرها من الظواهر المعروفة للبشر، تقوم على سلوك ظاهر ودوافع باطنة تخفى عادة على الباحث العلمي، بل إنها لتدق وتخفى حتى على صاحبها، ولكن الله، الذي يعلم السر وأخفى، يحيط بالظاهر والباطن من أفعال الناس، ومن ٱلزُّبُرِ فِى فَعَلُوهُ شَيۡءٍ وَكُلُّ ثم تسجل حقيقة الفعل والظاهرة الإجتماعية عنده كما هي: (وَلَا قُرۡءَانٍ مِن مِنۡهُ تَتۡلُواْ وَمَا شَأۡنٍ فِى تَكُونُ (وَمَا)(القمر)؛ ﴿٥٣﴾ مُّسۡتَطَرٌ وَكَبِيرٍ صَغِيرٍ وَكُلُّ ﴿٥٢﴾ مِّثۡقَالِ مِن رَّبِّكَ عَن يَعۡزُبُ وَمَا فِيهِ تُفِيضُونَ إِذۡ شُهُودًا عَلَيۡكُمۡ كُنَّا إِلَّا عَمَلٍ مِّنۡ تَعۡمَلُونَ)(يونس)؛ ﴿٦١﴾ مُّبِينٍ كِتَٰبٍ فِى إِلَّا أَكۡبَرَ وَلَآ ذَٰلِكَ مِن أَصۡغَرَ وَلَآ ٱلسَّمَآءِ فِى وَلَا ٱلۡأَرۡضِ فِى ذَرَّةٍ بِٱلۡحَقِّ يَنطِقُ كِتَٰبُ (وَلَدَيۡنَا(الإسراء)؛﴿٦٢﴾) حَسِيبًا عَلَيۡكَ ٱلۡيَوۡمَ بِنَفۡسِكَ كَفَىٰ كِتَٰبَكَ (ٱقۡرَأۡ فِيهِ مِمَّا مُشۡفِقِينَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فَتَرَى ٱلۡكِتَٰبُ وَوُضِعَ)(المؤمنون)؛ (﴿٦٢﴾ يُظۡلَمُونَ لَا وَهُمۡ مَا وَوَجَدُواْ أَحۡصَىٰهَا إِلَّآ كَبِيرَةً وَلَا صَغِيرَةً يُغَادِرُ لَا ٱلۡكِتَٰبِ هَٰذَا مَالِ يَوَيۡلَتَنَا وَيَقُولُونَ لِيَسۡتَخۡفُواْ صُدُورَهُمۡ يَثۡنُونَ إِنَّهُمۡ (أَلَآ)(الكهف)؛ ﴿٤٩﴾ أَحَدًا رَبُّكَ يَظۡلِمُ وَلَا حَاضِرًا عَمِلُواْ

ٱلصُّدُورِ بِذَاتِ عَلِيمُۢ إِنَّهُۥ ۚ يُعۡلِنُونَ وَمَا يُسِرُّونَ مَا يَعۡلَمُ ثِيَابَهُمۡ يَسۡتَغۡشُونَ حِينَ أَلَا ۚ مِنۡهُ (هود).۞)

بل إن الله تعالى يخبرنا أن أفعال البشر ترصد وتسجل على حقيقتها لحظة (وَإِنَّبلحظة من قبل الملائكة وهي تقع في الزمان والمكان في عالم الشهادة: رُسُلَنَا إِنَّ)(الإنفطار)؛ (۞ تَفۡعَلُونَ مَا يَعۡلَمُونَ ۞ كَٰتِبِينَ كِرَامًا ۞ لَحَٰفِظِينَ عَلَيۡكُمۡ وَرُسُلُنَا بَلَىٰ ۚ وَنَجۡوَىٰهُم سِرَّهُمۡ نَسۡمَعُ لَا أَنَّا تَحۡسَبُونَ أَمۡ(يونس)؛ (۞) تَمۡكُرُونَ مَا يَكۡتُبُونَ)(الزخرف). إذن فكما أن البشر يرصدون الظواهر الاجتماعية ۞ يَكۡتُبُونَ لَدَيۡهِمۡ التي تقع في عالم الشهادة، ويحللونها ثم يصلون فيها إلى نتائج تمثل جهدهم المعرفي في الوصول إلى الحق في تلك الظواهر، فإن ملائكة الرحمن أيضاً يرصدون ذات الظواهر، وما يكتبونه عنها يمثل حقيقتها اليقينية. ويبقى السؤال: هل النتائج التي يصل إليها البشر من خلال منهجيتهم البحثية يمكن أن تسمى علماً، إذا ما خالفت تلك التي سجلتها الملائكة عن نفس الظاهرة في ما أسماه الله تعالى "كتاب مبين"؟ فمثلاً ظاهرة اختفاء سيدنا عيسى، عليه السلام، يقدم القرآن تفسيراً لها جد مختلف عن ذلك الذي يقدمه علماء المسيحية، وهذا يعني أن ما رصدته وسجلته الملائكة عن ذلك الحدث في الكتاب المبين يختلف تماما عما رصده وسجله المسيحيون في كتبهم، فأيهما أصاب الحق، وأيهما قال علماً؟ وثمة سؤال آخر، وهو: إذا سلمنا أن الحق هو ما كان عند الله كذلك، وأن العلم هو ما عبر عن ذلك الحق، فكيف يستيقن البشر أن ما توصلوا إليه من نتائج في أبحاثهم هو الحق المتعلق بما يبحثون عنه، وأن مقولاتهم تعبر تماماً عن ذلك الحق، ومن ثم فهي علم؟ بعض الإجابة عن هذا السؤال والذي سبقه نعرض لها في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

ثالثاً: هناك القضية المنهجية، أي إمكان حصول الإنسان على العلم المتعلق بالحق، كما ورد في القضيتين الأولى والثانية. والقضية المنهجية هي أعقد قضايا العلم ولا شك، ذلك أن القضيتين الأوليين قضيتان موضوعيتان، تستقلان بوجودهما عن تدخلات البشر، ويمثلان الهدف الذي يسعى العالِم

للوصول إليه، بينما المنهاج والمنهجية هما الطريق وخارطته اللذان لابد منهما للوصول إلى الهدف. ولما جعل الله تعالى الحق أساس الوجود، وجعل العلم به ممكنا، وكلّف الناس بتحصيل ذلك القدر من العلم الذي تتحقق به عبوديتهم وخلافتهم له في أرضه، كان لابد أن يجعل له منهاجا يوصل الناس إليه، وإلا كان تكليفا بما لا يطاق، وهو ممتنع. لكن أي طريق قبل أن يسلكه السالك لابد له من خارطة تحدد طبيعته وتبين معالمه، وتحدد وجهته وطوله، وهل يوصل إلى الهدف، وهل هو أفضل الطرق من حيث المسافة والأمن، وهل توجد على طوله خدمات ومعينات تحفز وتسهّل على سالكه سفره..إلخ. إنّ خارطة الطريق هذه، رغم أهميتها القصوى، إلا أنها لا تكفي ابتداءً لتبيان كل تفاصيل الطريق، إذ لابد من سلوكها لتُعلَم كل منعرجاتها ومطباتها ومتاهاتها وما يتفرع عنها من سبل قد تُشْكِل على السالك، وقد تكون هناك مفاجآت تظهر في حينها..إلخ. بل إنّ القرآن يبين لنا أن الناس قد يؤثرون سبلا أكثر التواءً وتعقيدا، للوصول إلى الهدف، على سبيل أيسر منها خبروها ٱلْقُرَى وَبَيْنَ بَيْنَهُمْ (وَجَعَلْنَا وساروا عليها من قبل، ظلما لأنفسهم باتباع الهوى: ﴿١٨﴾ ءَامِنِينَ وَأَيَّامًا لَيَالِيَ فِيهَا سِيرُواْ ٱلسَّيْرَ فِيهَا وَقَدَّرْنَا ظَٰهِرَةً قُرًى فِيهَا بَٰرَكْنَا ٱلَّتِي مُمَزَّقٍ كُلَّ وَمَزَّقْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَنفُسَهُمْ وَظَلَمُوٓاْ أَسْفَارِنَا بَيْنَ بَٰعِدْ رَبَّنَا فَقَالُواْ)(سبأ).(٢) ﴿١٩﴾ شَكُورٍ صَبَّارٍ لِّكُلِّ لَأَيَٰتٍ ذَٰلِكَ فِي إِنَّ

إذن الطريق (المنهاج) الموصل للعلم المفضي إلى الحق موجود، ولكن لما كان وضع خارطة الطريق(المنهجية) والسير في هذا الطريق(البحث العلمي)، كلّها أو جلّها، عمل يقوم به السالك(العالِم)، ويعتمد من ثم على خصائص ذلك السالك، أوشك أن يكون أمر المنهاج ومنهجيته في المجال المعرفي جهدا بشريا خالصا، لأنه يعتمد على السمع والبصر والفؤاد، وهي بُطُونِ مِّنۢ أَخْرَجَكُم وَٱللَّهُوسائل الإدراك التي خلق الله تعالى بها الإنسان: (لَعَلَّكُمْ ۙ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ٱلسَّمْعَ لَكُمُ وَجَعَلَ شَيْـًٔا تَعْلَمُونَ لَا أُمَّهَٰتِكُمْ وَٱلْبَصَرَ ٱلسَّمْعَ إِنَّ عِلْمٌ بِهِۦ لَكَ لَيْسَ مَا تَقْفُ وَلَا)(النحل)؛ (﴿٧٨﴾ تَشْكُرُونَ

)(الإسراء). ولا سبيل إلى خلاص هذه ﴿ مَسْـُٔولاً عَنْهُ كَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ كُلُّ وَٱلْفُؤَادَ الوسائل الإدراكية من تأثير العادات والمعتقدات والقيم والأهواء، وكل أنواع التحيزات البشرية، إلا بتجرد عزيز المنال. بل إن قيم البشر ومعتقداتهم ومقاصدهم الحياتية تؤثر مباشرة في تخيرهم للظواهر التي تثير اهتمامهم، وفي تفسيرهم لها، ونوع الحقائق التي يبحثون عنها، ومن ثم نوع العلم الذي يطلبون تحصيله، فالتحيز صفة ملازمة للبشر كما يقول المسيري. ثم إذا تخلص المنهاج ومنهجيته من ركام الأهواء والشهوات واجهتهما محدودية القدرات والوسائل الإدراكية عند البشر، وعجزهم عن الإحاطة بكل الكليات والجزيئات التي يقوم عليها الكون بعوالمه المختلفة. وهكذا يظل الكسب العلمي للبشر، في مجمله، محدوداً مهما تراكم؛ وظنياً مهما تعاظم.

٢) اليقين:

هوالعلم وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. وفي الإصطلاح: الإعتقاد الجازم المطابق الثابت، أي الذي لا يزول بتشكيك المشكك. ونورد فيما يلي مجموعة من الآيات التي ورد فيها لفظ اليقين، ونتبعها بكلام نفيس للشيخ الشعراوي في الدلالة المفهومية التي تستقى من التوظيف القرآني للفظة "اليقين" في تلك الآيات.

١- (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾)(النساء)؛

٢- (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾)(الحجر)؛

٣- (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)(النمل)؛

٤- (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾)(الجاثية)؛

٥- (إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾)(الواقعة)؛

٦- (وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾)(الحاقة)؛
٧- (حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾)(المدثر)؛
٨- (كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾)(التكاثر)

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي عن معنى "اليقين" في معرض تفسيره للآية الأولى:

"ويوضح الحق سبحانه وتعالى: لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم، ولكنهم شكوا فيمن قُتل، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس؟.

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل وإنَّعيسى ابن مريم قال: (إِلَّا عِلۡمٍ مِنۡ بِهِۦ لَهُم مَا ۚ مِّنۡهُ شَكٍّ لَفِى فِيهِ ٱخۡتَلَفُواْ ٱلَّذِينَ يَقِينَۢا قَتَلُوهُ وَمَا ۚ ٱلظَّنِّ ٱتِّبَاعَ ﴿١٥٧﴾)(النساء). والنسبة الأولى المذكورة هنا هي الشك، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران. والنسبة الثانية هي اتباعهم للظن، وهو نسبة راجحة. لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً.

وينهي الحق ذلك بعلم يقيني {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}، وسبحانه ينفي بذلك أنهم قتلوه يقيناً، واليقين - كما نعلم - هو الأمر الثابت المعقود في الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير، وله مراحل هي: مرحلة العلم، واسمها "علم اليقين"، ومرحلة العين، واسمها "عين اليقين"، ومرحلة الحقيقة، واسمها "حق اليقين".

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءا من نيويورك اسمه «مانهاتن»، وأن مانهاتن هذه هي جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة، وفيها ناطحات سحاب، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم يَرَ نيويورك، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً؛ لأن الذي أخبر به موثوق به. وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة

وذهب إلى نيويورك، هنا تحول الخبر من «علم يقين» إلى «عين اليقين». وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به في كل شوارعها ومبانيها، فهذا هو «حق اليقين». وأسمى أنواع اليقين هو «حق اليقين»، وقبلها «عين اليقين»، وقبل «عين اليقين» «علم اليقين» .

وحينما عرض سبحانه المسألة قال: {كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين} [التكاثر:٣ – ٧] هو سبحانه يعطينا علم اليقين، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النارَ وذلك عين اليقين. أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة. والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين. ويأتي «حق اليقين» في موضع آخر من القرآن الكريم: {وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين} [الواقعة: ٩٢ – ٩٥]

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعاني من عذابها حق اليقين. إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً} يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل. والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا في ذلك. وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذي عرف حقيقة اليقين".

٣) الظن:

"هو الحكم بأحد النقيضين مع تجويز الآخر. أو هو إدراك يحتمل النقيض. وقد يطلق الظن بمعنى الوهم. وقد يطلق على ما يقابل اليقين، أي الإعتقاد الذي لا يكون جازماً".

٤) العلم:

نبدأ بإعطاء نماذج من تعريفات بعض علماء المسلمين لمفهوم العلم ثم نعطي تعريفاً من عندنا نرجو أن يجمع بين هذه التعريفات:[٣]

* يقول أبو علي الجبائي: (العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به)؛

* وقال أبو الحسن الأشعري: (العلم ما يعلم به، أو ما يصير الذات به عالماً)؛

* وقال أبو بكر الباقلاني: (العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به). وهذا التعريف هو ما ارتضاه إمام الحرمين الجويني في كتابه الإرشاد؛

* وقال القاضي عبد الجبار: (العلم هو المعنى الذي يقتضي سكون نفس العالم إلى ما تناوله)؛

* وقال أبو إسحق الإسفراييني: (العلم تبين المعلوم)؛

* وقال أبو بكر بن فورك: (العلم ما يصح من المتصف به إحكام الفعل وإتقانه)؛

* وقال الراغب الأصفهاني: (العلم إدراك الشيء بحقيقته).

والتعريف الذي اخترته للعلم هو: **اليقين بالحق المبتغى في المعلوم.**

وينبني هذا التعريف على ثلاث قضايا تعرضنا لها سابقا عند نقاشنا لمفهوم الحق، وهي:[٤]

١/ الوجود المستقل للحق موضوع العلم؛

٢/ يقين العالم بتحصيل هذا الحق (context of discovery).

٣/ البرهان بصدق هذا اليقين (context of justification).

سبق أن قلنا إن العلم جوهر يستقل بوجوده عن الإنسان العالم، لذلك فإن اليقين يتعلق بالمنهج الذي يتبعه العالم للوصول، أولا؛ إلى العلم الذي يطلبه، ومن ثم درجة اطمئنانه القلبي إلى ما توصل إليه، فقد يكون ظنا راجحا، وقد يكون يقينا رافعا للظن، في درجات اليقين الثلاث: علم اليقين؛ علم عين اليقين؛ علم حق اليقين. وهذه المرحلة تسمى في فلسفة العلوم مرحلة)، حيث يظل العلم خاصا بصاحبه. ثم، context of discoveryالكشف والإلهام(ثانيا؛ للوصول إلى إقناع غيره من العلماء بصدق يقينه هذا حيث يلزمه الدليل context ofوالبرهان، وتسمى هذه المرحلة في فلسفة العلوم مرحلة التبرير( ). وقد يظل العلم مقتصرا على صاحبه لملابسات تتعلق بطبيعة justification العلم أو العالِم أو المنهاج.

العلم، كما عرّفناه سابقاً، له في القرآن مكان علي وشأن عظيم، فقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه عليم وعالم وعلاّم، وجعل العلم هو الفيصل في اتخاذ المواقف وَٱلْفُؤَادَ وَٱلْبَصَرَ ٱلسَّمْعَ إِنَّ عِلْمٌ بِهِۦ لَكَ لَيْسَ مَا تَقْفُ (وَلَاوالخيارات العقدية وغيرها: قَتَلُوهُ وَمَا ٱلظَّنِّ ٱتِّبَاعَ إِلَّا عِلْمٍ مِنْ بِهِۦ لَهُم مَا)(الإسراء)؛ (٣٦) مَسْـُٔولًا عَنْهُ كَانَ أُوْلَٰٓئِكَ كُلُّ بِٱلْمُعْتَدِينَ أَعْلَمُ هُوَ رَبَّكَ إِنَّ عِلْمٍ بِغَيْرِ بِأَهْوَآئِهِم لَّيُضِلُّونَ كَثِيرًا وَإِنَّ)(النساء)؛ (١٥٧) يَقِينًا أَنتُمْ وَإِنْ ٱلظَّنَّ إِلَّا تَتَّبِعُونَ إِن لَنَآ فَتُخْرِجُوهُ عِلْمٍ مِّنْ عِندَكُم هَلْ قُلْ(الأنعام)؛ (١١٩))(الأنعام). كذلك قصر الله سبحانه وتعالى تقواه وخشيته على العلماء (١٤٨) تَخْرُصُونَ إِلَّا من عباده، لا سيما الراسخون منهم في العلوم الكونية، ورفعهم درجات على من ثَمَرَٰتٍ بِهِۦ فَأَخْرَجْنَا مَآءً ٱلسَّمَآءِ مِنَ أَنزَلَ ٱللَّهَ أَنَّ تَرَ أَلَمْسواهم من عباده المؤمنين: (وَمِنَ (٢٧) سُودٌ وَغَرَابِيبُ أَلْوَٰنُهَا مُّخْتَلِفًا وَحُمْرٌ بِيضٌ جُدَدُۢ ٱلْجِبَالِ وَمِنَ أَلْوَٰنُهَا مُّخْتَلِفًا ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ عِبَادِهِ مِنْ ٱللَّهَ يَخْشَى إِنَّمَا كَذَٰلِكَ أَلْوَٰنُهُۥ مُخْتَلِفٌ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلدَّوَآبِّ ٱلنَّاسِ عَلَى وَٱلسُّوٓءَ ٱلْيَوْمَ ٱلْخِزْيَ إِنَّ ٱلْعِلْمَ أُوتُواْ ٱلَّذِينَ قَالَ)(فاطر)؛ (٢٨) غَفُورٌ عَزِيزٌ ٱللَّهَ إِنَّ بِمَا وَٱللَّهُ دَرَجَٰتٍ ٱلْعِلْمَ أُوتُواْ وَٱلَّذِينَ مِنكُمْ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ ٱللَّهُ يَرْفَعِ)(النحل)؛ (٢٧) ٱلْكَٰفِرِينَ وَكَذَٰلِكَ(المجادلة). كذلك وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأنه علم: (١١) خَبِيرٌ تَعْمَلُونَ وَلِيٍّ مِن ٱللَّهِ مِنَ لَكَ مَا ٱلْعِلْمِ مِنَ جَآءَكَ بَعْدَمَا أَهْوَآءَهُم ٱتَّبَعْتَ وَلَئِنِ عَرَبِيًّا حُكْمًا أَنزَلْنَٰهُ

نَدْعُ تَعَالَوْاْ فَقُلْ ٱلْعِلْمِ مِنَ جَآءَكَ مَا بَعْدِ مِنۢ فِيهِ حَآجَّكَ (فَمَنْ)(الرعد)؛ ﴿٣٧﴾ وَاقٍ وَلَا عَلَى ٱللَّهِ لَّعْنَتَ فَنَجْعَل نَبْتَهِلْ ثُمَّ وَأَنفُسَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ أَبْنَآءَنَا (آل عمران).﴿٦١﴾ ٱلْكَٰذِبِينَ

ورغم أن الكسب البشري المعاصر في مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية عجز حتى الآن عن تحقيق العلم كما عرّفناه سابقاً، وذلك بسبب قصور النسق الذي من خلاله يتم النشاط المعرفي(الوضعية)، إلا أن الحفاظ على مثل هذا التعريف للعلم مهم في إطار النسق المعرفي التوحيدي حتى لا ننتهي إلى النسبية المعرفية التي انتهت إليها كثير من نظريات المعرفة المعاصرة عند الغربيين.(٥) كذلك فإن قبول هذا التعريف للعلم مهم حتى لا تقعد بنا الهمة عن البحث عن الحق بدعوى أن ذلك غير ممكن، ومن ثم إنكار وجود الحقيقة الموضوعية ابتداءً.

٥) المعرفة :

نبدأ تقصينا للمفهوم الذي تحمله هذه الكلمة الشائعة (معرفة) بإيراد عدد من الآيات القرآنية التي وردت فيها، ثم نعقب ذلك بشواهد من تعريفات لهذا المفهوم من قبل عدد من علماء المسلمين، ثم نورد ما بدا لنا من أبعاد أخرى لمفهوم المعرفة مما لم يؤكده الآخرون، ونختم بمحاولة لتوضيح العلاقة بين "العلم" و "المعرفة":

(١)(وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾)(محمد)؛

(٢)(وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾)(يوسف)؛

(٣)(وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾)(البقرة)؛

(٤)(وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾)(المائدة)؛

(٥)(وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ ﴿٧٢﴾)(الحج)؛

(٦)(لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾)(البقره)؛

(٧)(وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾)(النمل)؛

(٨)(أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾)(المؤمنون)؛

(٩)(ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾)(البقرة)؛

(١٠)(وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾)(الأعراف)؛

(١١)(يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾)(النحل)؛

(١٢)(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾)(الأحزاب)

جاء في "لسان العرب" لإبن منظور عن المعنى اللغوي للمعرفة ما يلي:

"عرف؛ العرفان: العلم؛ قال ابن سيدة: وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان. والتعريف: الإعلام؛ والتعريف أيضاً إنشاد الضالة...عرّف فلان الضالة، أي ذكرها وطلب من يعرفها، فجاء رجل يعترفها، أي يصفها بصفة يُعلم أنه صاحبها. وفي حديث ابن مسعود: فيقال لهم هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إذا اعترف لنا عرفناه، أي إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عرفناه.

والمعارف: الوجوه. والمعروف: الوجه،لأن الإنسان يعرف به. والمعروف: ضد المنكر. والعرف ضد المنكر. والعرف والعارفة والمعروف واحد: ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به وتطمئن إليه".

جاء في كتاب "العلم والإيمان" للبروفسير إبراهيم أحمد عمر عن المعرفة ما يلي: "من هذا أخلص إلى أن المعرفة ليست علماً خالصاً ولا إيماناً خالصاً، وإنما هي إدراك يجمع بين العلم والإيمان. وأوضح ما يكون الأمر عندما نقول إنّ موضوع العلم شاهد وموضوع الإيمان غائب وموضوع المعرفة شاهد غائب. ولأن إدراك الشاهد(العلم) يؤدي، خاصة عند الإنسان المعافى ذي الخبرة والتجربة، إلى إدراك الغائب(الإيمان) وفي وقت وجيز، فإن أكثر إدراك الإنسان معرفة. ولأن المعرفة إدراك يخلط العلم بالإيمان فهي لا تجوز في حق الله سبحانه وتعالى– عالم الغيب والشهادة – الذي لا يجوز في حقه الإيمان"[٦].

أورد المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مستلته عن المفاهيم عدة تعريفات لمفهوم المعرفة لعدة علماء نقتطف منها الآتي:

يلخص الدكتور جعفر عباس حاجي مفهوم المعرفة في قوله: "يمكننا القول بأن المعرفة هي العملية الإدراكية للأشياء أو الموضوعات التي تقع خارج الذهن البشري على حقيقتها، أي حصول العلم بالأشياء. وتنطوي هذه العملية العقلية على عدة عمليات، تتمثل في عمليات الإدراك الحسي، والتذكر، والتعرف، والتمييز بين الأشياء، والتخيل، والإستقراء والمقارنة والإستنباط والإستنتاج والحكم والتفكير".

أما الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح فيعرفها كالآتي:

"المعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره...والمعرفة أخص من العلم والعلم والمعرفة يفرق بينهما من جهة اللفظ ومن جهة المعنى...أما الفرق من جهة المعنى فمن وجوه: أحدها: المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحوال

الشيء، فيقول: عرفت أباك وعلمته صالحا. فالمعرفة: تصور صورة الشيء، والعلم حضور أحوال الشيء وصفاته، والمعرفة نسبة التصور والعلم نسبة التصديق. ثانيها: أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه، أو تكون وصفاً له بصفات قامت في نفسه. فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل: عرفه. فالمعرفة نسبة الذكر في النفس، وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر، ولهذا كان ضدها الإنكار. وضد العلم الجهل. ويقال عرف الحق فأقر به، وعرفه فأنكره. ثالثها: أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تميز ما يوصف به عن غيره. رابعها: أنك إذا قلت: علمت محمداً لم تفد المخاطب شيئاً، لأنه ينتظر أن تخبره على أي حال علمته...فإذا قلت كريماً أو شجاعاً، حصلت له الفائدة. وإذا قلت: عرفت محمداً، استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره، ولم يبق أن ينتظر شيئاً آخر. خامسها: أن المعرفة علم يعين الشيء مفصلاً عما سواه، بخلاف العلم فإنه يتعلق بالشيء مجملاً...والفرق بين العلم والمعرفة عند المحققين أن المعرفة هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده".

والذي ترجّح لكاتب هذا البحث، بعد الإمعان في دلالة الآيات التي وردت فيها مشتقات كلمة معرفة، وبعد النظر في الآراء المتقدمة لعلماء أجلاء، هو أن مفهوم المعرفة يتلخص في أن المعرفة *هي:*

"عملية توظيف ذهني لما تراكم في الذاكرة من معلومات حسية عن عالم الشهادة للتمييز الفوري بين المثيرات الخارجية التي نتصل بها في حياتنا العملية، ولتحديد ردود أفعالنا تجاهها. كل ذلك من خلال المقارنة فالمطابقة بين وارد الحس من معلومات عن المثير الخارجي ووارد الذاكرة الفوري من مخزون المعلومات عن ذلك المثير، وما يتبع ذلك من تداعي بقية المعلومات التي نمتلكها عن ذلك المثير مما يعمّق معرفتنا به".

ويمكننا أن نميز العمليات الذهنية والنفسية الآتية في العملية المعرفية:

) للمعلومات الحسية من المثير الخارجي؛Reception١/ عملية الاستقبال (

عن معلومات في الذاكرة مطابقة أو مشابهة (Search) ٢/ عملية البحث للمعلومات المستقبَلة؛

للمعلومات المناسبة من الذاكرة؛(Retrieval)٣/ عملية الاستحضار

بين المعلومات الواردة ومعلومات الذاكرة؛(Comparison)٤/ عملية المقارنة

بين نوعيْ المعلومات؛(Matching)٥/ عملية المطابقة

للمثير الخارجي؛(Identification) أو التمييز (Remembrance)٦/ عملية التذكر

على المثير الخارجي؛(Cognition)٧/ عملية التعرف

على المثير الخارجي.(Reaction)٨/ عملية رد الفعل

، (Subjective) ذاتية(Process)هكذا تبدو لنا المعرفة باعتبارها عملية ، وفي (Instantaneous)، وفورية (Innate)يمارسها جميع الناس بتلقائية فطرية ، وذلك من أجل (Consciousness)جميع الأحوال التي يحتفظ فيها الإنسان بوعيه تسيير حياتنا العملية العادية. العملية المعرفية إذن هي حقيقة وعينا بمحيطنا الخارجي وأساس تفاعلنا معه، والوسائل الأساسية التي نمارس من خلالها هذه العملية هي وسائل الحس الناقلة للمعلومات من المحيط الخارجي والقلب المعنى بكل العمليات الإدراكية والإنفعالية في دواخلنا. ولما كانت هذه طبيعة المعرفة فإنها من خصائص المخلوقين الذين قد يتذكرون فيعرفون وقد ينسون فينكرون، ولا تجوز في حق الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

العلاقة بين العلم والمعرفة:

إذا كان هذا هو مفهوم المعرفة وقد سبقه تبيان ماهية العلم فما هو الفرق بينهما وما هي نوع العلاقة التي تجمع بينهما؟

الفرق الأول، الذي يبدو لنا، هو أن المعرفة عملية (Process) لا تنفك عن الشخص الذي يمارسها، بينما العلم جوهر (Subjective)ذاتية عن ذات الإنسان. والذاتية التي يمكن أن تنسب إلى العلم Objective)مستقل(لا تتعلق بجوهره وإنما برؤية العالم ومسلماتها التي تحدد للباحث مصادر علمه ومحتواه ومنهجيته وأهدافه، ولكن في إطار هذه المسلمات القبلية يظل العلم المبتغى جوهر مستقل، وتتمتع منهجيته بموضوعية تسمح لأتباع الرؤية الكونية المعنية بمزاولة العملية العلمية من خلال هذه المنهجية، بما يمكّن من جعل النتائج العلمية التي يصل إليها باحث ما حقاً مشاعاً للآخرين يمكن التثبت من صحتها من خلال تجاربهم المستقلة.

الفرق الثاني، الذي يبدو لنا، هو أن العملية العلمية عملية إبداعية تؤدى إلى إيجاد معلومات يقينية جديدة تضاف إلى رصيدنا العلمي عن شيء كان مجهولا، كلّه أو بعضه، من قبل، بينما المعرفة هي عملية استرجاع لمعلومات قديمة في الذاكرة عن شيء كان معروفا لنا سلفا.

الفرق الثالث، هو أن هدف العلم الوصول إلى العلل والأسباب والحقائق التي تحكم الأشياء، بينما هدف المعرفة هو التمييز بين الأشياء.

الفرق الرابع، هو سمة التلقائية التي تمارس بها العملية المعرفية بينما العملية العلمية تقوم على الرصانة والأناة والتثبت المنهجي. لذلك فالمعرفة يمارسها جميع الناس، بل حتى الحيوانات والحشرات فيما يبدو، لأنا نرى حياتها اليومية تعتمد على التمييز بين موجودات المحيط الذي تتحرك فيه، بينما إنتاج العلم ليس إلا للخاصة من البشر.

الفرق الخامس، هو أن المعرفة لما كانت عملية ذاتية فإنّه يمكن فيها الإنكار بحق، والإنكار المتعمّد دون الخوف من كشف الآخرين للحقيقة، فَدَخَلُواْ يُوسُفَ إِخۡوَةُ وَجَآءَولعل هذا يؤكده قوله تعالى في الإنكار الحقيقي: ((يَعۡرِفُونَ)(يوسف)، وفي الانكار المتعمّد: ﴿٥٨﴾ مُنكِرُونَ لَهُۥ وَهُمۡ فَعَرَفَهُمۡ عَلَيۡهِ

)(النحل). والإنكار هنا مع ﴿ ٨٣ ﴾ ٱلۡكَٰفِرُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ يُنكِرُونَهَا ثُمَّ ٱللَّهِ نِعۡمَتَ معرفة النعمة هو تغطية(كفر) لها وجحود بها. أما العلم فلأنه جوهر مستقل، ومنهجيته يُتوخّى فيها الموضوعية، فإنه بعد الوصول إلى الحقيقة العلمية ونشرها على الملأ، لا يمكن إنكارها، وذلك لإمكان التثبت من صحتها بسهولة وبصورة مستقلة من قبل العلماء الآخرين. لذلك كان ضد العلم الجهل، وضد المعرفة الإنكار، سواء كان حقيقياً أو متعمداً.

الفرق السادس، هو أن العلم لا ينبني إلا على اليقين، بينما المعرفة يمكن أن تبنى على اليقين وعلى الظن، بحسب نوع المعلومات التي تحملها الذاكرة عما يراد تمييزه.

الفرق السابع، هو أن المعرفة لما كانت استجابة إدراكية لمثير خارجي باشر الحواس في إطار حركة الحياة اليومية، فإنه لابد فيها من رد فعل مهما كان ضئيلاً، أو غير محسوس(قلبي)، ولعل هذا يؤيده الحديث الشريف: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". أما العلم فلأنه جوهر مستقل يتعلق بحقائق الأشياء فيمكن إنتاجه وتدوينه، ومن ثم تعلمه من الكتب، أو بالسماع، دون مباشرة المتعلم بنفسه لموضوع العلم، وبصورة ذهنية مجردة عن الإنفعال، ورد الفعل المصاحب للعملية المعرفية، والناجم من أنه لابد من أن يباشرها الشخص بنفسه.

والآن لنرى ما هي العلاقة التي تجمع بين العلم والمعرفة؟ العلاقة الأساسية بين العلم والمعرفة التي تكشفت لنا من تحليلنا لكل من المفهومين هي أن العلم يمكن أن يرفد المعرفة بالمعلومات اليقينية التي تختزن في الذاكرة عن المثيرات الخارجية، وهي العنصر الأساسي في العملية المعرفية كما ذكرنا. فكلما كانت هذه المعلومات يقينية (علمية) كلما كانت معرفة الإنسان بمحيطه الخارجي صحيحة ومبنية على العلم، ومن ثم تكون ردود أفعاله سليمة وحكيمة، وكلما كانت هذه المعلومات ظنية(وهمية) كلما كانت معرفة الإنسان خاطئة ومبنية على الجهل، ومن

ثم تكون ردود أفعاله خبط عشواء. والحقيقة هي أننا إذا استثنينا المعلومات الحسية الأولية عن المحيط الخارجي التي يكتسبها الإنسان بخبرته العملية، والتي غالباً ما تكون صحيحة، مثل تمييز الرجل عن المرأة، والحمار عن البقرة، والطائر عن الزاحف، بل ودقائق الأوصاف الظاهرة عن الأشياء، فإنّ ما وراء هذه المعلومات البسيطة الظاهرة، مما يحمله غالب الناس عن بيئتهم المباشرة وكونهم العريض، هي مجرد ظنون ولكنها مع ذلك تشكّل أساساً لمعرفتهم، ويرسمون حياتهم بمقتضاها، ويحددون مواقفهم بناء عليها. ذلك أن معرفتنا لمحيطنا الخارجي لا تقتصر فقط على تمييز الأشياء من خلال السمات الظاهرة لحواسنا، ولكن في ذات اللحظة تتداعى كل المعلومات المختزنة في ذاكرتنا عن الشيء موضوع المعرفة ليكتمل إدراكنا له، ومن ثم حكمنا عليه.

والمطلوب هو أن تكون حقائق العلم هي أساس المعرفة البشرية لا الأهواء والظنون: (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦))(يونس)؛ (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ (١٢))(الحجرات). والظن الذي ليس بإثم هنا هو ذلك الذي يصادف الحق كما في قوله تعالى: (ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (٤٦))(البقرة). وهو ظن منهجي بسبب عدم إمكان الوصول إلى اليقين لقصور في المنهج، والاستقراء خير مثال على ذلك، ومن ثمّ سُمّي الظن المنهجي الراجح علماً، مع أنه حقيقة ليس كذلك إلا إذا صادف الحق الذي يتوخاه. وهذا الإشكال المنهجي قد يكون هو تفسير الحديث الشريف: "من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد"، مع أن كلِيْ المجتهدين لن يكون على يقين من أنه أصاب الحق أو أخطأه، ولكن الله تعالى عالم الغيب والشهادة هو الذي يعلم أيهما أخطأ وأيهما أصاب فيجازي بحسب ذلك.

هكذا يبدو لنا الدور الحاسم للعلم في العملية المعرفية، لذلك فنحن عندما نقارن النموذجين المعرفيين(التوحيدي،الدنيوي) فإنما نقارن قدرتهما على مد الإنسان بالعلم عن كل حقائق الوجود التي يحتاج الإنسان إلى العلم بها، سواء تلك المتعلقة بعالم الشهادة أو بعالم الغيب. العلم إذن هو محور بحثنا هذا، والعلم لا

المعرفة هو الذي أعلى القرآن شأنه، ووصف الله تعالى به نفسه ووصف به عباده)(فاطر). ﴿ غَفُورٌ عَزِيزٌ ٱللَّهَ إِنَّ ۗ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ عِبَادِهِ مِنْ ٱللَّهَ تَخْشَى (إِنَّمَاالذين يخشونه: ولكن العلم لا قيمة له إلا إذا أصبح أساساً لمعرفتنا(عملنا)، كما روى عنه صلى الله عليه وسلم: "*إعلموا ما شئتم فلن ينفعكم الله به حتى تعملوا به*"، ومن ثم تصبح الآلية التي يستطيع بها النموذج المعرفي جعل العلم أساساً للعمل قضية ذات خطر، وينبغي أن تعطى الاهتمام اللازم.

٣,١- التصور القرآني للاجتماع الإنساني والضرورة المعرفية للإنسان:

هل هناك ضرورة معرفية تقتضيها الحكمة من خلق الإنسان؟ للإجابة على هذا السؤال ينبغي أولا أن نتبين حقيقة هذه الحكمة من خلق الإنسان كما بينها القرآن. وسوف نقوم بهذه المهمة، إن شاء الله، من خلال تقديم رؤية للعالم من المنظور القرآني، وهي رؤية لعالم الإنسان في علاقته بعالم الغيب والشهادة، وأسمينا ذلك "**خطة الخلق العامة**". ولكن قبل أن نصحب معنا القارئ في هذه المهمة الجليلة إلى عالم القرآن الكريم يحسن بنا أن نلم بعجالة عن مفهوم "رؤية العالم" وقضاياه، حتى ندرك أننا لسنا أمام مهمة سردية وصفية بل أمام مهمة بنائية تركيبية نماذجية نمارس فيها وسعنا في التجريد النظري للوصول إلى رؤية معرفية للعالم الاجتماعي نبني عليها نماذجنا المعرفية التي هي موضوع هذا البحث.(٧)

يعرّف المعنيون بالبحث في الفلسفة وفلسفة العلوم "رؤية العالم" بأنها مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة. ويتبع هذا التعريف مجموعة من القضايا، هي:

١/ بناء رؤية للعالم:

تشتمل علي محاولات لتطوير رؤي للعالم تأخذ في الاعتبار أكبر قدر من أوجه خبراتنا الحياتية. ورغم أن هذا البناء يتم عبر جسور اللغة التي تتسم بالمحدودية إلا أن مشروع البناء يستحق الجهد. يرتبط بناء الرؤى للعالم بالثقافة التي عبرها يتم تداول المعاني، وتنتقل أنماط السلوك من جيل إلى جيل، وحيث يتم إنتاج المشاكل الاجتماعية والسياسية، وأنواع الفنون. أما المواد التي تبنى بها الرؤى فتأتي من العلم الذي تتيحه لنا مصادرنا المعرفية عن عالمنا، ومن خبراتنا الذاتية العميقة، ومن معاملاتنا العملية مع أشياء الحياة. كل هذه الأمور ترتبط بالضرورة بثقافة معينة ليست بجامدة بل هي في تغير مستمر. لذلك فإن رؤية العالم ليست صورة جامدة أو نسخة كربونية من العالم، بل تحاول أن تلتقط أكبر قدر من سمات عالمنا.

٢/ خصائص رؤية العالم:

أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و "الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والإستعارات التي لا يقصى بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفية للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة. ولكن مع ذلك فإن رؤية العالم أكبر من مجموع الحقائق العلمية التي تأتي بها العلوم الفيزيائية والاجتماعية. لذلك فإن رؤية العالم قد تلهم مزيداً من التطور في العلم، وقد تنتقد بعض جوانبه. من هذه الزاوية تصبح رؤية العالم امتداداً وتواصلاً لما جاء إلينا من العلوم، أحياناً تتطابق معه، وأحياناً تقوم بالتعميم منه، وأحياناً تنقده وترفضه.

إن رؤية العالم لا تنسب إلى ناتج العلوم وحده بل ينبغي أن تسمح لنا بتضمين عالم المعاني وعالم القيم بحيث نفهم أكبر قدر من سمات عالمنا. ولأن عملية التقويم تحتوي على قدر كبير من الذاتية ومن ثم تلتصق

بشخص بعينه حتى داخل الثقافة الواحدة فإن من الصعوبة البالغة تحقيق رؤية عالم كونية شاملة وواحدة لكل الناس.

٣/ المكونات السبعة لرؤية العالم :

١,٣- نموذج للعالم(A model of the world):

يجب أن تمكننا رؤية العالم من فهم كيف يعمل العالم وكيف بُني. "العالم" هنا تعني كل شيء موجود حولنا بما في ذلك العالم الفيزيائي، الأرض، الحياة، العقل، المجتمع والثقافة. الإنسان نفسه جزء مهم من العالم لذلك لابد أن تجيب رؤية العالم على السؤال الأساس: من نحن؟

٢,٣- التفسير(Explanation):

لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء هذا العالم؟ من أين جاء الجنس البشري؟

٣,٣- المستقبليات(Futurology):

إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف نختار بين المسارات المستقبلية المختلفة بحيث نفضل ما يجب تفضيله؟

٤,٣- القيم(Values):

ما هو الخير والشر؟: يتضمن هذا المكون النظام الأخلاقي الذي يحدد لنا ما يجب وما لا يجب أن نفعله. يعطينا هذا المكون أيضاً زمرة من المقاصد التي تقود أفعالنا.

٥,٣- الفعل(Action):

إن معرفة الأهداف والمقاصد لا يعني معرفة كيفية الوصول إليها، لذلك لابـــد من الإجابة على السؤال: كيف نفعل؟ يجب أن نعطي نظرية للفعل تعيننا على حل مشاكل عملية، وتنفيذ خطط أفعالنا.

٦,٣- العلم (Knowledge):

تعتمد الخطط على العلم والمعلومات والنظريات والنماذج التي تصف الظواهر التي تواجهنا. لذلك نحن في حاجة لمعرفة كيف نبني نماذج يمكن الاعتماد عليها، وهذا هو مكوّن كسب العلم في رؤية العالم.

يجب الإجابة على السؤال المتعلق بما هو حقيقي وما هو كاذب.

٧,٣- كُتل البناء (Building Blocks):

الرؤى للعالم لا تبدأ من لا شيء بل لابد من كُتَلٍ تبدأ بها، وتتمثل في العلم والنظريات العلمية القائمة، النماذج، المفاهيم، القيم وغيرها من الموجهات المتوزعة بين التخصصات العلمية والأيديولوجيات.

٤/ اختبارات رؤية العالم:

١,٤- اختبار النسقية: هل رؤية العالم المعنية متسقة منطقياً؟

٢,٤- اختبار الوسطية: هل تقوم رؤية العالم المعنية على ميزان قسط بين التعقيد والتبسيط؟

٣,٤- اختبار القوة التفسيرية ومدى الرؤية: إلى أي مدى تحسن رؤية العالم تفسير الواقع؛ وما مدى كمال الأدّلة الداعمة لمجال رؤيتها؟

٤,٤- اختبارالتوافق: إلى أي مدى تتوافق رؤية العالم المعنية مع حقائق الواقع المؤكدة؟

٥,٤- اختبار الإثبات: هل يمكن تأكيد أو تكذيب الحقائق المركزية التي تدعيها رؤية العالم المعنية؟

٦,٤- اختبار الواقعية: هل تدعم رؤية العالم المعنية نتائج واقعية وعملية بحيث يمكن عيشها في الخارج؟

٧,٤- الاختبار الوجودي: هل تعالج رؤية العالم الاحتياجات الداخلية الحقيقية للبشر بحيث يمكن عيشها في الداخل الوجداني؟

٨,٤- اختبار المنافسة: هل تستطيع رؤية العالم المعنية المنافسة في سوق الأفكار؟

٩,٤- اختبار التنبؤ: هل تستطيع رؤية العالم المعنية التنبؤ بنجاح بالاكتشافات المستقبلية؟

رؤية العالم ليست تجميعا لإجابات مستقلة عن الأسئلة أعلاه، ولكنها بناء معرفي متماسك تتولد من منطقها الداخلي الإجابات المطلوبة والمناسبة لتلك الأسئلة. وسوف نقوم الآن بمهمة بناء رؤية العالم عن الاجتماع الإنساني من المنظور القرآني بغرض الإجابة فقط عن السؤال المعرفي المتعلق بالظاهرة الاجتماعية، والله المستعان وعليه التكلان.

إنّ المتأمل في آيات الذكر الحكيم يتأكد لديه أن الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان تقتضي منه المعرفة، وسوف نتتبع في الصفحات التالية هذه الحكمة من خلق الإنسان كما وردت في القرآن الكريم لنستل من مجموع آياته ما أسميناه بالتصور القرآني للاجتماع الإنساني، أو في اصطلاح أخص، ب**"خطة الخلق العامة"**، وهي حكمة ثاوية في القرآن لمن يتدبّر.

نستخدم مصطلح "**خطة الخلق العامة**" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض قد تم اختبارها في الملأ الأعلى بمشاركة جميع الأطراف المعنية: الخالق سبحانه، الملائكة، البشر ممثلين في آدم وحواء عليهما السلام، والجن ممثلين في إبليس. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى

الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي ل"**خطة الخلق العامة**" على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي ل"**خطة الخلق العامة**" هذه وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه الرؤية الكونية الاسلامية هو مبدأ التوحيد:
قُلۡ(هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ
)(الإخلاص). فالله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل ﴿٤﴾ مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيئ إلا يسبح بحمده؛ وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيئ حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة
لَعِبٞ ٱلدُّنۡيَا ٱلۡحَيَوٰةُ أَنَّمَا ٱعۡلَمُوٓاْالدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة فقال: (
نَبَاتُهُۥ ٱلۡكُفَّارَ أَعۡجَبَ غَيۡثٍ كَمَثَلِۖ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ٱلۡأَمۡوَٰلِ فِي وَتَكَاثُرٞ بَيۡنَكُمۡ وَتَفَاخُرُۢ وَزِينَةٞ وَلَهۡوٞ
ٱللَّهِ مِّنَ وَمَغۡفِرَةٞ شَدِيدٞ عَذَابٞ ٱلۡأٓخِرَةِ وَفِيۖ حُطَٰمٗا يَكُونُ ثُمَّ مُصۡفَرّٗا فَتَرَىٰهُ يَهِيجُ ثُمَّ
)(الحديد). ﴿٢٠﴾ ٱلۡغُرُورِ مَتَٰعُ إِلَّا ٱلدُّنۡيَآ ٱلۡحَيَوٰةُ وَمَاۚ وَرِضۡوَٰنٞ

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية على النحو الآتي: المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على هذه الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:٥٦). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه

في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً، إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(البقرة:٣٦)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)(الأعراف:٢٥).

ثانياً، إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه على الأرض: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الإسراء:٧٠)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة:٣٠). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخلَف "الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستخلِف "الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾)(الحجرات،١٣)؛ (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾)(النساء،١).

ثالثاً، إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:٦١).

رابعاً، إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الملك:٢). فالإنسان يمكنه

أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها.

خامساً، إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الكهف:٧).

سادساً، إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما "**المال**"(موارد معدنية، زراعية، حيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة مضافة بفعل الإنسان) و"**البنون**"(علاقة جنس بين ذكر وأنثى تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة ... إلى شعوب وقبائل): (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف:٤٦).

سابعاً، إن الابتلاء في "**المال**" و "**البنين**" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(آل عمران:١٤).

ثامناً، إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في هذه الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(الإنسان:٣)؛ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) (الزمر:٧).

تاسعاً، إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من دوافع الفجور

والتقوى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:٧٨)؛ (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق: ٥)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(١٠))(الشمس:٧-١٠). ثم منح الله الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بأخلاق التقوى الموجبة (الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق.. إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بأخلاق الفجور السالبة(الشح،البخل،الكبر،الحسد..إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:٢٩).

عاشراً، الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر، هي علم وإيمان وعمل صالح:

(١) علم بأمر المنعم(الله تعالى)، وعلم بالمنعم عليه(الإنسان)، وعلم بالنعمة (المال،البنون) والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه.
(٢) إيمان بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين.
(٣) العمل الصالح الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضى المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧)(إبراهيم). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده الروحي: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي

نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)(لقمان:٣٤). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المادي الممتزج بالجسد المادي كما في قوله تعالى :(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر:٤٢).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:٤٦) وهي علاقة (رجل–امرأة–أبناء). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)(النحل :٧٢). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)(الصافات:١٤٩).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تجليات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم ٱلْحَيَوٰةِ زِينَةُ وَٱلْبَنُونَ ٱلْمَالُمعبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: ( )(الكهف)، ثم يرد المفهوم ﴿٤٦﴾ أَمَلاً وَخَيْرٌ ثَوَابًا رَبِّكَ عِندَ خَيْرٌ ٱلصَّٰلِحَٰتُ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَنِينَ ٱلنِّسَآءِ مِنَ ٱلشَّهَوَٰتِ حُبُّ لِلنَّاسِ زُيِّنَمفصلا إلى عناصره الأولية: (ذَٰلِكَ وَٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْخَيْلِ وَٱلْفِضَّةِ ٱلذَّهَبِ مِنَ ٱلْمُقَنطَرَةِ وَٱلْقَنَٰطِيرِ)(آل عمران). ﴿١٤﴾ ٱلْمَغَابِ حُسْنُ عِندَهُۥ وَٱللَّهُ ٱلدُّنْيَا ٱلْحَيَوٰةِ مَتَٰعُ

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع

بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم المشرب، والعري الناجم عن عدم الملبس، والإضحاء الناجم عن عدم المسكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من إشباعها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و "المال" و"البنون" من الأصول الكليّة لمقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، الصبر، العدل، الإحسان، السخاء..إلخ هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

١/ "العلم بظاهر الحياة الدنيا" وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم (السمع،البصر،الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق في عالم الشهادة.

٢/ "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم

الخبر" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض، أى في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وأخلاق التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وأخلاق الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسئول عن نشأة المجتمعات وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة الجنس أدت إلى سكن الرجل إلى المرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو"الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزين لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من

زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى عقد اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و "لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في استخدامها إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس لزينة الحياة الدنيا. وَإِذْ العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: ( )(إبراهيم:٧)؛ ﴿ لَشَدِيدٌ عَذَابِي إِنَّ كَفَرْتُمْ وَلَئِن لَأَزِيدَنَّكُمْ شَكَرْتُمْ لَئِن رَبُّكُمْ تَأَذَّنَ

)(النساء). ﴿١٤٧﴾ عَلِيمًا شَاكِرًا ٱللَّهُ وَكَانَ ۚ وَءَامَنتُمۡ شَكَرۡتُمۡ إِن بِعَذَابِكُمۡ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَّا(ولكن الدوافع السالبة التي أودعها الله في النفس البشرية، والتي تتعلق بها أخلاق الفجور(الكبر، الشح، البخل، الطمع، الحسد.. إلخ)، هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود:٨٧).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: (بَلْ تُؤْثِرُونَالْحَيَاةَ الدُّنْيَا*وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)(الأعلى:١٦-١٧)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)(الأنعام:٣٢)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)(الشورى:٢٠).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من أو قال:(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)،(المؤمنون:٣٧)، قال:(رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص:١٦)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:٢٠).

أما من قال: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(البقرة:٢٠١)؛ أو قال: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:٣٩)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة:(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:٢١)؛ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ تَعْقِلُونَ * يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص:٦٠-٦١).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شئ حتى يحي من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تجلياته في السلم. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ الإيمان والعمل الصالح: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر:١-٣)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)،(الإسراء:٣٣)؛ و"البنين": (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ
إِلَى بِهَآ وَتُدۡلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ بَيۡنَكُم أَمۡوَٰلَكُم تَأۡكُلُوٓاْ وَلَاسَبِيلاً)(الأسراء٣١-٣٢)؛ و"المال": (
)(البقرة:١٨٩)؛ و"العلم": ﴿١٨٨﴾ تَعۡلَمُونَ وَأَنتُمۡ بِٱلۡإِثۡمِ ٱلنَّاسِ أَمۡوَٰلِ مِّنۡ فَرِيقًا لِتَأۡكُلُواْ ٱلۡحُكَّامِ
مَسۡـُٔولاً عَنۡهُ كَانَ أُوْلَٰٓئِكَ كُلُّ وَٱلۡفُؤَادَ وَٱلۡبَصَرَ ٱلسَّمۡعَ إِنَّ عِلۡمٌۚ بِهِۦ لَكَ لَيۡسَ مَا تَقۡفُ وَلَا(
)(الإسراء:٣٦).﴿٣٦﴾

إن العلاقة بين "الأيمان" من جهة وبين "النفس"، "العلم"، "المال" و"البنون" من جهة أخري هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل الإيمان بوجهيه، العقدي(التوحيد) والعملي(الشكر). ولا يمكن حفظ الإيمان إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ

حفظ ميزان التفاعل مجتمع التوحيد على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، و وَلَا فَٱتَّبِعُوهُ مُسْتَقِيمًا صِرَٰطِى هَـٰذَا وَأَنَّبينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: (تَتَّقُونَ لَعَلَّكُمْ بِهِۦ وَصَّىٰكُم ذَٰلِكُمْ ۚ سَبِيلِهِۦ عَن بِكُمْ فَتَفَرَّقَ ٱلسُّبُلَ تَتَّبِعُواْ)(الأنعام،١٥٣). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتي فهم المعني الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية (عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس،المال،البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من فكانت أخلاق التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. العبادات (صلاة، كاة،صوم،حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع الفجور، وتمكيناً "للعلم" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولى الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود "الله تعالى" أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف "الله تعالى" من قبل المستخلَف "الإنسان" فيما استخلف فيه "الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية هى الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هى أصول الاجتماع الإنساني (الإيمان، المتاع

الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في التعامل مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توصف السياسات العلاجية المناسبة.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من رؤية العالم الدنيوية، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الانساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل رقم(١)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية

تتبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، في إطار النموذج التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار النموذج الدنيوي.

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، رؤية العالم التوحيدية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يمين الرسم، ورؤية العالم الدنيوية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. الشكل رقم(٢) يجسّم الرؤية التوحيدية، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراتها في إطار نظامها الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم(٣) الرؤية الدنيوية. ومن معطيات الرؤية التوحيدية تأتي الأحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات الرؤيتين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على النفس البشرية، بما في ذلك نفس المسلم.

نموذج قرآني للاجتماع

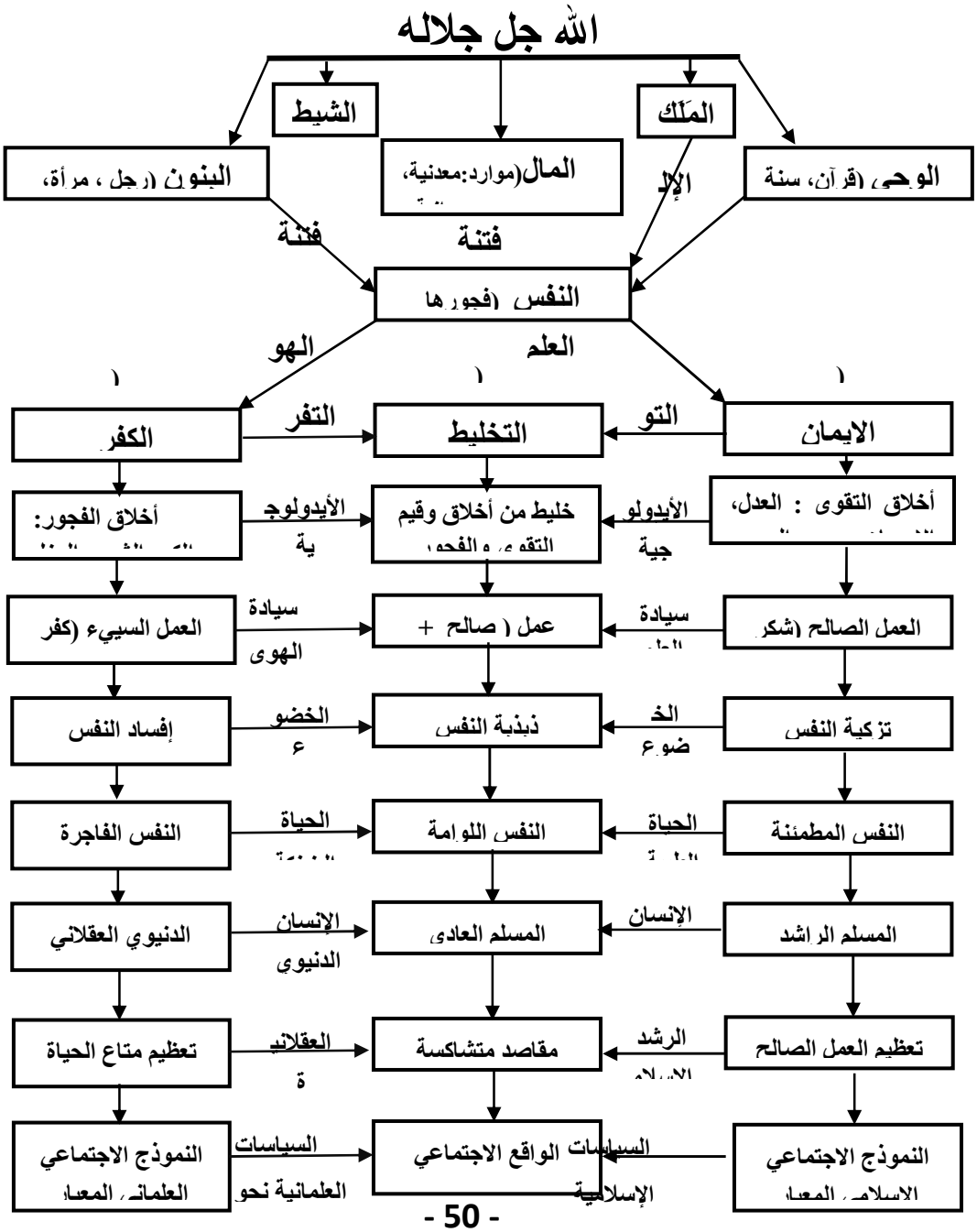

شكل رقم (٢)

نموذج الاجتماع التوحيدي

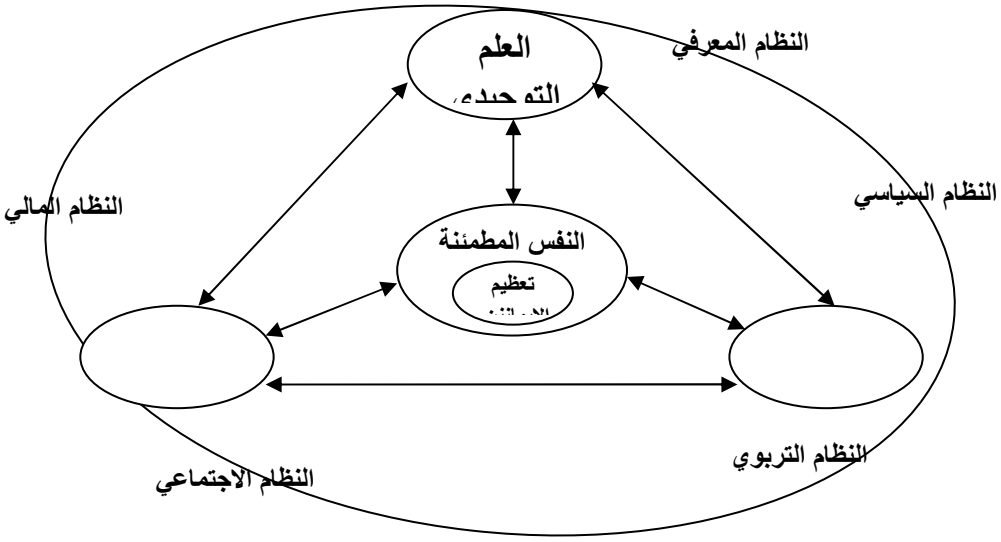

شكل رقم (٣)

نموذج الاجتماع الدنيوي

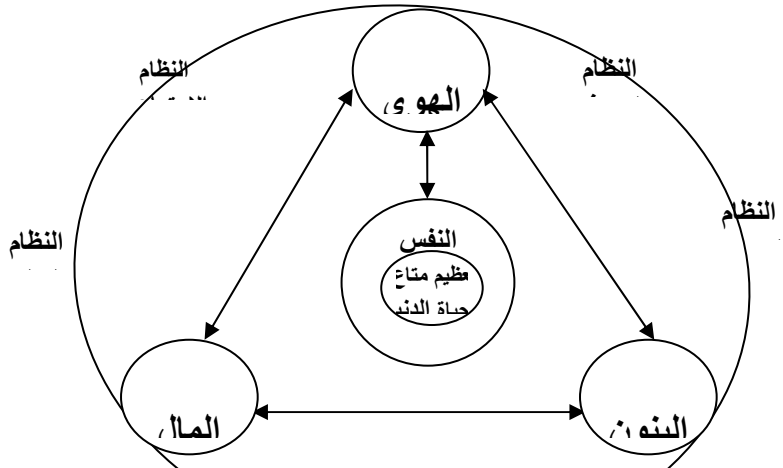

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل "الإيمان" متغيرها التابع (dependent variable)، ومتغيرات "النفس المطمئنة"؛ "العلم"؛ "البنون"؛ "المال"؛ "التوحيدي" متغيراتها المستقلة (Independent variables)؛ فهي دالة هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته.

الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، (Righteous Muslim)الراشد ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني) أيضا.Rational(

الضرورات الحيوية (الجوع، العطش، العرى، الإضحاء، العنت الجنسي) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية (دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهى أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج

ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الانسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في تعظيم متاع الحياة الدنيا ويوظف أكثر الوسائل فعالية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني (Rational).

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هى التجلي التاريخي الأتم **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن النظام القرآني للاجتماع الإنساني أعلاه يمكن أن يمثل "**برنامج بحث علمي**"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التجليات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان[٨]. ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله، وباتباع المنهج العلمي الصارم(الاستقراء،الاستنباط)، تدبرا في القرآن، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدت تجلياتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع

الإنساني كما تبينها "**خطة الخلق العامة**"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تجلّت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "**خطة الخلق العامة**"، بحيث نتج عن ذلك التجلّي والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة. إنّ **خطة الخلق العامة** هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. لذلك فإن البحث العلمي في تجلياتها التاريخية سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق. وسوف نسوق مثالا من القرآن الكريم في ختام هذا البحث لندلل به على النموذج التفسيري التوحيدي فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية، في إطار **خطة الخلق العامة**، ولقد اخترنا اسم "الظاهرة السبئية" للمثال الذي سقناه من سورة سبأ في قوله تعالى:

رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ (سبأ).

إن النتيجة المهمة التي أود أن أصل إليها من هذا العرض الموجز ل"**خطة الخلق العامة**"، والتي تمثل الإجابة على السؤال المطروح عن الضرورة المعرفية، هي أن الله تعالى خلق الإنسان والكون لحكمة تقتضي بالضرورة تعرّف الإنسان على هذا الكون بظواهره الطبيعية والإنسانية. وكل ذلك يتم من خلال التفاعل الحتمي بين النفس البشرية وبين الكون المحسوس ممثلاً في عنصري المال والبنين.

إذن هناك ضرورة معرفية، وقدْر ضروري من المعرفة لابد للبشر من الحصول عليه. ولكن تبقى الإجابة على السؤال الأهم وهو: أي نوع من المعرفة؟ وكيف السبيل إليها؟ وما الغرض منها؟ الإجابة على هذه الأسئلة

تقتضي التعرّف على النموذج المعرفي الشامل الثاوي في القرآن الكريم، من خلال أركان المعرفة الخمسة: (المصدر،المحتوى،العالِم،المنهجية،المقصد).

٤,١- النموذج المعرفي الشامل المستنبط من القرآن:

النموذج المعرفي الشامل الذي استنبطناه من القرآن يحتوي على نموذجين معرفيين هما: النموذج المعرفي التوحيدي المنبثق عن رؤية العالم التوحيدية المعبرة عن خيار "**الدار الآخرة**"، والنموذج المعرفي الدنيوي المنبثق عن رؤية العالم الدنيوية المعبرة عن خيار "**الحياة الدنيا**". إذن فالنموذجين المعرفيين الذين نحن بصددهما تضرب جذورهما في "**خطة الخلق العامة**" من حيث قيامهما على ثنائية النفس البشرية المذكورة آنفا. وهكذا نجد أن النفس بثنائيتها القائمة على دوافع التقوى والفجور هي الحلقة التي تربط بين "**خطة الخلق العامة**" وبين نظرية المعرفة التي نحن بصددها. وسوف يتبين أن العلم الذي ينتجه كلا النموذجين هو علم إسلامي، لأنه مطلوب لحفظ مجتمع التوحيد على صراط الله المستقيم على الدوام، في الزمان والمكان، وذلك يكون بحفظه من جانب الوجود ومن جانب العدم.

والآن نحاول، إن شاء الله، إبراز أهم الخصائص التي تميز كلا من النموذجين المعرفيين (التوحيدي، الدنيوي) وذلك من خلال أركان العلم(المعرفة) الخمسة التي ذكرناها آنفاً.

١,٤,١- النموذج المعرفي التوحيدي

١,١,٤,١- مصدر العلم:

هناك ثلاثة مصادر في النموذج المعرفي التوحيدي أحدها أوّلي والآخران من دونه. أما المصدر الأول للعلم فهو الله سبحانه وتعالى، وهو قُلِ ٱللَّهُ قُلِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ رَّبُّ مَن قُلۡمصدر كل شيء كما قال عن نفسه: (يَسۡتَوِي هَلۡ قُلۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا لِأَنفُسِهِمۡ يَمۡلِكُونَ لَا أَوۡلِيَآءَ دُونِهِۦٓ مِن أَفَٱتَّخَذۡتُم كَخَلۡقِهِۦ خَلَقُواْ شُرَكَآءَ لِلَّهِ جَعَلُواْ أَمۡ وَٱلنُّورُ ٱلظُّلُمَٰتُ تَسۡتَوِي هَلۡ أَمۡ وَٱلۡبَصِيرُ ٱلۡأَعۡمَىٰ مِّن وَإِن)(الرعد)؛ (١٦ ٱلۡقَهَّٰرُ ٱلۡوَٰحِدُ وَهُوَ شَيۡءٖ كُلِّ خَٰلِقُ ٱللَّهُ قُلِ عَلَيۡهِمۡ ٱلۡخَلۡقُ فَتَشَٰبَهَ نِّعۡمَةٖ مِّن بِكُم (وَمَا)(الحجر)؛ (٢١ مَّعۡلُومٖ بِقَدَرٍ إِلَّا نُنَزِّلُهُۥٓ وَمَا خَزَآئِنُهُۥ عِندَنَا إِلَّا شَيۡءٍ ٱلۡقَيُّومُ ٱلۡحَيُّ هُوَ إِلَٰهَ لَآ ٱللَّهُ)(النحل)؛ (٥٣ تَجۡـَٔرُونَ فَإِلَيۡهِ ٱلضُّرُّ مَسَّكُمُ إِذَا ثُمَّ ٱللَّهِ فَمِنَ عِندَهُۥ يَشۡفَعُ ٱلَّذِي ذَا مَن ٱلۡأَرۡضِ فِي وَمَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ فِي مَا لَّهُۥ نَوۡمٞ وَلَا سِنَةٞ تَأۡخُذُهُۥ لَا بِمَا إِلَّا عِلۡمِهِۦٓ مِّنۡ بِشَيۡءٖ يُحِيطُونَ وَلَا خَلۡفَهُمۡ وَمَا أَيۡدِيهِمۡ بَيۡنَ مَا يَعۡلَمُ بِإِذۡنِهِۦٓ إِلَّا)(البقرة)؛ (٢٥٥ ٱلۡعَظِيمُ ٱلۡعَلِيُّ وَهُوَ حِفۡظُهُمَا يَـُٔودُهُۥ وَلَا وَٱلۡأَرۡضَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ كُرۡسِيُّهُ وَسِعَ شَآءَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ٱلسَّمۡعَ لَكُمُ وَجَعَلَ شَيۡـٔٗا تَعۡلَمُونَ لَا أُمَّهَٰتِكُمۡ بُطُونِ مِنۢ أَخۡرَجَكُم وَٱللَّهُ( )(العلق)٥ يَعۡلَمۡ لَمۡ مَا ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَ)(النحل)؛ (٧٨ تَشۡكُرُونَ لَعَلَّكُمۡ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ

أما المصدران اللذان من دون الله فهما: الوحي(القرآن،السنة)، والكون المحسوس (عالم الشهادة)، حيث جعلهما الله تعالى مستقراً ومستودعا لكل العلوم التي يحتاجها البشر في حياتهم الأرضية.

(أ) الله جل جلاله:

أما كيف يكون الله تعالى مصدراً مباشراً للعلم البشري فإنما يتم ذلك أَوْ وَحْيًا إِلَّا ٱللَّهُ يُكَلِّمَهُ أَن لِبَشَرٍ كَانَ وَمَابثلاث طرق ذكرها الله تعالى في قوله: (حَكِيمٌ عَلِيٌّ إِنَّهُۥ ۚ يَشَآءُ مَا بِإِذْنِهِۦ فَيُوحِيَ رَسُولاً يُرْسِلَ أَوْ حِجَابٍ وَرَآيٍ مِن)(الشورى). هناك ثلاث مراتب في هذه الصلة المباشرة بين المصدر الأوّلي ﴿٥١﴾ للعلم(الله) وبين المتلقي(الإنسان) لا تكون إلا للأنبياء، نذكر بصددها ما قاله الإمام إبن قيم الجوزية في كتابه "مدارج السالكين"، الجزء الأول:

"**المرتبة الأولى:** 'مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم الله موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال) (النساء)، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح ﴿١٦٤﴾ تَكْلِيمًا مُوسَىٰ ٱللَّهُ (وَكَلَّمَالله تعالى: والنبيين من بعده ، ثم خص موسى بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية'.

أَوْحَيْنَآ إِنَّآ**المرتبة الثانية:**'مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: (وَإِسْمَٰعِيلَ إِبْرَٰهِيمَ إِلَىٰٓ وَأَوْحَيْنَآ ۚ بَعْدِهِۦ مِنۢ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ نُوحٍ إِلَىٰ أَوْحَيْنَآ كَمَآ إِلَيْكَ دَاوُۥدَ وَءَاتَيْنَا ۚ وَسُلَيْمَٰنَ وَهَٰرُونَ وَيُونُسَ وَأَيُّوبَ وَعِيسَىٰ وَٱلْأَسْبَاطِ وَيَعْقُوبَ وَإِسْحَٰقَ).﴿١٦٣﴾ زَبُورًا

المرتبة الثالثة: 'إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم'.

أما عن المراتب الأخرى في الصلة بين المصدر الأوّلي للعلم(الله) ومتلقيه(الإنسان) فيفصلها إبن القيم، رحمه الله، في ثمان درجات نجملها كالآتي نقلاً عنه:

المرتبةالرابعة: 'مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في هذه الأمة محدث فعمر بن الخطاب".

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به. قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول، صلى الله عليه وسلم، فاستغنى به عما منه'.

المرتبة الخامسة: 'مرتبة الإفهام، قال الله تعالى: (فِي تَحۡكُمَانِ إِذۡ وَسُلَيۡمَٰنَ وَدَاوُۥدَ)(الانبياء). فالفهم نعمة ﴿٧٨﴾ شَٰهِدِينَ لِحُكۡمِهِمۡ وَكُنَّا ٱلۡقَوۡمِ غَنَمُ فِيهِ نَفَشَتۡ إِذۡ ٱلۡحَرۡثِ من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع إستوائهما في حفظه وفهم أصل معناه. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح)، وما خص به ابن عباس من فهمه منها: إنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا. وأين تجد في

هذه السورة الإعلام بأجله لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج من النصوص إلى غيرها'.

المرتبة السادسة: 'مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهوداً للقلب كشهود العين للمرئيات. وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعال: (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾).

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حيث بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به.

المرتبة السابعة: 'البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال تعالى في هذه المرتبة: (إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾)، وقال: (إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾).

المرتبة الثامنة: 'مرتبة الإسماع، قال الله تعالى: (وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾)، وقال تعالى: (وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾).

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الإذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿٣﴾) . وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه.

وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾).

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾). وقال النبي، صلى الله عليه وسلم، لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم: "قل اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي". ويقول ابن القيم موضحاً الفرق بين التحديث والإلهام: التحديث أخص من الإلهام فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له بـــالإيمان. فأما التحديث فالنبي، صلى الله عليه وسلم، قال فيه: "إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر"، يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء، أما من المكلفين، كقوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴿٧﴾)(القصص)، وقوله: (وَإِذْ

)(المائدة)، ﴿١١١﴾ مُسۡلِمُونَ بِأَنَّنَا وَٱشۡهَدۡ ءَامَنَّا قَالُوٓاْ وَبِرَسُولِي بِي ءَامِنُواْ أَنۡ ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ إِلَى أَوۡحَيۡتُ وَمِنَ بُيُوتًا ٱلۡجِبَالِ مِنَ ٱتَّخِذِي أَنِ ٱلنَّحۡلِ إِلَى رَبُّكَ (وَأَوۡحَىٰ‌وأما من غير المكلفين كقوله تعالى:)(النحل). فهذا كله وحي إلهام'.﴿٦٨﴾ يَعۡرِشُونَ وَمِمَّا ٱلشَّجَرِ

ويذكر ابن القيم أن المعرفة من الله بواسطة الإلهام: 'بأن يخاطبه الملك خطابا جزئياً فإن هذا يقع لغير الأنبياء. وهو نوعان: أحدهما، خطاب يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين. والثاني، خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور: "إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: وَيَأۡمُرُكُم ٱلۡفَقۡرَ يَعِدُكُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُإيعاد بالشر وتكذيب بالوعد"، ثم قرأ: ( )(البقرة)، وقال ﴿٢٦٨﴾ عَلِيمٌ وَٰسِعٌ وَٱللَّهُ ۗ وَفَضۡلاً مِّنۡهُ مَّغۡفِرَةً يَعِدُكُم وَٱللَّهُ ۖ بِٱلۡفَحۡشَآءِ)(الأنفال)، ﴿١٢﴾ ۚ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ فَثَبِّتُواْ مَعَكُمۡ أَنِّي ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِلَى رَبُّكَ يُوحِي إِذۡتعالى: (قيل في تفسيرها: "قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر". وفي الحديث عن النواس بن سمعان عن النبي، صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيما، وعلى كنفتي الصراط سوران لهما أبواب مفتحة.." إلى قوله: "والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن". فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة'.

المرتبة العاشرة: 'الرؤيا الصادقة: وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم: "الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة".

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطيء، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم. وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذه الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليه، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقال عبادة بن الصامت: "رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام "، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات "، قيل وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن، أو ترى له". وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها يشطاني. وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام".

والذي هو من المعرفة الإسلامية: الرؤيا التي من الله خاصة، ورؤيا الأنبياء وحي، وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي. ولينم على طهارة كاملة مستقبلاً القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه.

فإنّ رؤياه لا تكاد تكذب البتة. وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهي واقتراب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين.

وللرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: الرؤيا من الوحي وحي، وزجر عن تفسيرها بلا علم، وقال: أتتلاعب بوحي الله؟"

إنتهى نقلنا عن الإمام إبن القيم وبه ينتهي حديثنا عن المصدر الأول من مصادر المعرفة في النموذج التوحيدي. ولكن لما كان الله، سبحانه وتعالى، إنما خلق الإنس لعبادته، وأنّ عبادته تقتضي العلم به للقيام بحقّه، ولما كان الله، سبحانه وتعالى، لا يدركه عباده مباشرة بحواسهم، فقد جعل من دون ذلك مصدرين معرفيين هما القرآن الكريم والكون المحسوس. ومن خلال هذين المصدرين المعرفيين قام التكليف من الله للبشر، وبحجتهما يتم الجزاء في الدار الآخرة.

(ب) الوحي الكريم :

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله، صلى الله عليه وسلم. وهو كله علم قطعي الثبوت لقوله تعالى: (وَلَا يَدَيْهِ بَيْنِ مِنْ ٱلْبَـٰطِلُ يَأْتِيهِ لَّا لَحَـٰفِظُونَ لَهُۥ وَإِنَّا ٱلذِّكْرَ نَزَّلْنَا نَحْنُ إِنَّا)(فصلت)؛ (﴿٤٢﴾ حَمِيدٍ حَكِيمٍ مِّنْ تَنزِيلٌ خَلْفِهِۦ مِنْ فَرَّطْنَا : (مَّا)(الحجر). ولأن القرآن علم قطعي في كل شيء لقوله سبحانه وتعالى﴿٣٨﴾ (الأنعام)، حتى إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال، فيما ﴿٣٨﴾) شَىْءٍ مِن ٱلْكِتَـٰبِ فِى روي عنه، ما معناه: "لو ضاع مني عقال لوجدته في كتاب الله"، فإنه من هذا

الوجه مصدر لا مثيل له للكليات والمسلمات العلمية اللازمة لنشأة العلوم بشقيها الطبيعي والإنساني، ولمنهجيتها كذلك. ذلك أن أحد أهم مشاكل العلوم الحديثة، طبيعية كانت أم إنسانية، هو عدم يقينها من المسلمات الكلية الأولية، القبلية والبَعدية، التي تقوم عليها، وعدم وجود منهجية قادرة على توفير هذا اليقين. لذلك تظل كل المقولات العلمية النظرية والتطبيقية ظنية، ولكن إذا كان لدينا مصدر(القرآن) يحتوي على مثل هذه السنن الكلية اليقينية فإنه بإمكاننا من حيث المبدأ، إن تمكنا من استنباطها منه، أن نؤسس عليها قاعدة علمية يقينية لا ظنية تقوم عليها علومنا الطبيعية والإنسانية. إلا أن الظن قد يأتي من فهمنا للنصوص، والذي قد لا يطابق حقيقة النص القرآني، وقد يأتي الظن من المنهجية التي سوف تتبع في استنباط هذه القوانين الكلية. ولكن كل هذه الاحتمالات يمكن الاحتياط لها بتدابير تمكن من اجماع على مدلول النص، ومن ثم مضمون القانون العلمي المستنبط.

ورغم أن القرآن علم وكلام مقروء بلسان عربي مبين إلا أن آياته هي في ذاتها أعيان تماماً كمفردات الكون المحسوس، وهي في مجموعها كل مترابط بحيث تمثل كتابا أُحكمت آياته ثم فصلت، فهو بذلك نسق معرفي مغلق مكتفٍ بذاته. لذلك فآياته تحتاج إلى دراسة وفهم، من خلال بيئتها الداخلية ومن خلال علاقاتها البينية، لسبر أغوارها واستنباط ما تيسر من مخزونها العلمي، ومن ثم تحتاج إلى منهجية بحثية كما تحتاج دراسة الكون المحسوس إلى ذلك.

وما قلناه عن القرآن كمصدر من مصادر إبستمولوجيا المعرفة الإسلامية ينطبق على السنة النبوية الصحيحة، إلا أنها ليست مصدرا موازيا للقرآن، بل مبينة له: (يَتَفَكَّرُونَ وَلَعَلَّهُمْ إِلَيْهِمْ نُزِّلَ مَا لِلنَّاسِ لِتُبَيِّنَ ٱلذِّكْرَ إِلَيْكَ وَأَنزَلْنَآ هي وَهُدًى فِيهِ ٱخْتَلَفُواْ ٱلَّذِى هُمُ لِتُبَيِّنَ إِلَّا ٱلْكِتَبَ عَلَيْكَ أَنزَلْنَا وَمَآ)(النحل)؛ ( )، وتنضبط به متنا. والقرآن والسنة يمثلان مدخلا يُؤْمِنُونَ لِّقَوْمٍ وَرَحْمَةً لابد منه لمعرفة عالم الشهادة بالطريقة التي تمكّن من القيام بمقتضى الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان والكون، كما أجملناه سابقاً في "**خطة الخلق العامة**". كذلك إذا استثنينا المصدر الأوّلي(الله تعالى) فإنّ القرآن والسنة هما مصدرنا الوحيد لعلم الخبر عن الغيب، وللعلم المتعلق بمجال القيم والتفضيلات في عالم الشهادة.

(ج) عالم الشهادة:

الكون المشاهد بكل عناصره، المادية والحيوية والاجتماعية والمعنوية، مصدر أساس من مصادر المعرفة التوحيدية، والدليل على ذلك نجده في طبيعة "**خطة الخلق العامة**"، التي تقتضي تعامل الناس مع هذا الكون. كذلك نجده في آيات كثيرة من القرآن الكريم تحث الناس على التفكر في خلق السموات والأرض، وما بث الله، سبحانه وتعالى، في ثناياها من آيات دالة على عظمته، وانفراده بالخلق والتدبير. وللعلم من هذا المصدر مهمّتان، إحداهما **عقدية** من حيث دلالة الخلق على الخالق، والفعل على الفاعل، باعتبار الكون بشواهده المجلّوة آيات تؤدي إلى الإيمان بالله فاطر السماوات

والأرض، وإلى الاعتبار بأقداره في الناس، أفرادا وجماعة. والمهمة الثانية **وظيفية** باعتبار دور العلم في الكشف عن أحكام الله وسننه في الأنفس والآفاق التي يتأسس عليها العمران، ويتحقق بها الاستخلاف.

٢,١,٤,١ – محتوى العلم:

المرتكز الثاني للقضية المعرفية هو نوع العلم الذي ينبغي أن يمدنا به النموذج المعرفي التوحيدي. ويمكن أن نقول بصورة عامة إنّ نوع العلم المطلوب يحدده المقصد من خلق الإنسان، وهو كما جاء في القرآن عبادة الله تعالى، أي العلم به، والقيام بأمره ونهْيه في أرضه، بمقتضى شرعه. إذن العلم التوحيدي المطلوب هو ذلك الذي يتعرّف الإنسان به على خالقه من خلال خلقه أو كلامه، و يهتدي به إلى الحكمة من خلق الإنسان والكون، ومن ثم يعينه على العمل بمقتضى تلك الحكمة: وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ٱلسَّمۡعَ لَكُمُ وَجَعَلَ شَيۡـٔٗا تَعۡلَمُونَ لَا أُمَّهَٰتِكُمۡ بُطُونِ مِّنۢ أَخۡرَجَكُم وَٱللَّهُ(وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ٱلسَّمۡعَ لَكُمُ أَنشَأَ ٱلَّذِيٓ وَهُوَ)(النحل)؛ (٧٨) تَشۡكُرُونَ لَعَلَّكُمۡ ۖ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ وَجَعَلَ ۖ رُّوحِهِۦ مِن فِيهِ وَنَفَخَ سَوَّىٰهُ ثُمَّ)(المؤمنون)؛ (٧٨) تَشۡكُرُونَ مَّا قَلِيلٗا ۚ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ٱلَّذِيٓ هُوَ قُلۡ)(السجدة)؛ (٩) تَشۡكُرُونَ مَّا قَلِيلٗا ۚ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ٱلسَّمۡعَ لَكُمُ)(الملك). إذن، الحكمة (٢٣) تَشۡكُرُونَ مَّا قَلِيلٗا ۖ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ٱلسَّمۡعَ لَكُمُ وَجَعَلَ أَنشَأَكُمۡ الأولية من العلم، ومن تزويد الإنسان بأدوات تحصيله(السمع، البصر،الفؤاد)، كما يبينها القرآن، هي التحقق بالشكر لله تعالى في عمارة الأرض، عملا صالحا في زينة الحياة الدنيا(المال،البنون)، وهو المعنى العملي للإيمان.

ولكن الضرورة البديهية تقتضي أن يكون ابتداء هذا العلم وحيا من الله تعالى، نَبۡعَثَ حَتَّىٰ مُعَذِّبِينَ كُنَّا (وَمَاحتى يحيى من حييّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة: ٱلرُّسُلِ بَعۡدَ حُجَّةُۢ ٱللَّهِ عَلَى لِلنَّاسِ يَكُونَ لِئَلَّا وَمُنذِرِينَ مُّبَشِّرِينَ رُّسُلًا)(الإسراء)؛ (﴿١٥﴾ رَسُولاً حَتَّىٰ هَدَىٰهُمۡ إِذۡ بَعۡدَ قَوۡمَۢا لِيُضِلَّ ٱللَّهُ كَانَ وَمَا)(النساء)؛ (﴿١٦٥﴾ حَكِيمًا عَزِيزًا ٱللَّهُ وَكَانَ)(التوبة). وهكذا أنزل الله تعالى القرآن ﴿١١٥﴾ عَلِيمٌ شَيۡءٍ بِكُلِّ ٱللَّهَ إِنَّ يَتَّقُونَ مَّا لَهُم يُبَيِّنَ الكريم كتابا يحوي تفاصيل بعضٍ من هذا العلم التوحيدي، والبعض الآخر من العلم جاء القرآن الكريم بتوضيح طبيعته وتحديد مفاتحه في شكل كليات ينبغي أن تؤسس عليها تفاصيل ذلك العلم. أما التفاصيل هذه فقد تُركت لكسب العقل البشري، لأن ذلك مِنۢ ٱلۡأَرۡضِ فِي خَلَٰٓئِفَ جَعَلۡنَٰكُمۡ ثُمَّميدان الامتحان الذي تقوم عليه "**خطة الخلق العامة**": ( )(يونس).﴿١٤﴾ تَعۡمَلُونَ كَيۡفَ لِنَنظُرَ بَعۡدِهِمۡ

ما هي إذاً العلوم التوحيدية التي يعبر عنها متغير العلم في النموذج التوحيدي في إطار **خطة الخلق العامة** ؟ ما يلي هو جهد المقل، والله سبحانه المستعان وعليه التكلان، وفوق كل ذي علم عليم.

لا شك أن أول ما يتبادر إلي الذهن هو ما يمكن تسميته "**علم العلم**" الذي يدرس ماهية العلم وقضاياه ومصادره ومناهجه ومقاصده ومن هو العالم. ثم ماذا بعد ذلك ؟ فلنرجع إلي الدالتين التوحيدية والدنيوية اللتين تلخصان **خطة الخلق العامة** ولنتأمل بإيجاز وإجمال أنواع العلوم المطلوبة لتتحقق بالإنسان حكمة الخالق من الخلق. إذا تفكرنا في الدالة التوحيدية نجد أن الله تعالى قد ٱللَّهُ إِلَّا إِلَٰهَ لَآ أَنَّهُۥ فَٱعۡلَمۡجعل العلم هو السبيل الوحيد إلى الإيمان به وتوحيده: (

)(محمد)؛ ﴿١٩﴾ وَمَثۡوَىٰكُمۡ مُتَقَلَّبَكُمۡ يَعۡلَمُ وَٱللَّهُ ۗ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ لِذَنۢبِكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡ هُوَ إِلَّا إِلَٰهَ لَآ ۚ بِٱلۡقِسۡطِ قَآئِمَۢا ٱلۡعِلۡمِ وَأُوْلُواْ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هُوَ إِلَّآ إِلَٰهَ لَآ أَنَّهُۥ ٱللَّهُ شَهِدَ( )(آل عمران). يقتضي هذا نشأة علوم التوحيد التي تقوم ﴿١٨﴾ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَزِيزُ أَفَلَابالاستدلال من الوحي على الموحي ومن الخلق على الخالق تعالى: ( )(النساء)؛ ﴿٨٢﴾ كَثِيرًا ٱخۡتِلَٰفٗا فِيهِ لَوَجَدُواْ ٱللَّهِ غَيۡرِ عِندِ مِنۡ كَانَ وَلَوۡ ۚ ٱلۡقُرۡءَانَ يَتَدَبَّرُونَ أَنَّهُۥ بِرَبِّكَ يَكۡفِ أَوَلَمۡ ۗ ٱلۡحَقُّ أَنَّهُ لَهُمۡ يَتَبَيَّنَ حَتَّىٰ أَنفُسِهِمۡ وَفِيٓ ٱلۡأٓفَاقِ فِي ءَايَٰتِنَا (سَنُرِيهِمۡ)(فصلت). وهى في الجملة تأتلف من علوم نقلية وعقلية ﴿٥٣﴾ شَهِيدٌ شَيۡءٖ كُلِّ عَلَىٰ وكونية، ولها مداخلها في القرآن الكريم. وينبغي تأسيس تلك العلوم على هذه المداخل حتى تؤدى وظيفتها المطلوبة كأدلة إيمان بالله الواحد.

ثم إذا نظرنا إلي زينة الحياة الدنيا" **المال،البنون**" كنعم كُلّفنا بالانتفاع وعمران الأرض بها وتأدية شكرها، لزم من ذلك علوم كونية تمكّن من معرفة خصائص تلك النعم التي بها ذُلّلت للإنسان وسُخّرت بما يمكّن من الانتفاع بها وتحقيق الحكمة من خلقها. هذه العلوم الكونية الوظيفية أيضاً لها مداخلها في القرآن، وينبغي تأسيسها على تلك المداخل. فإذا جئنا إلي المنعَم عليه"**الإنسان**" فهناك نوعان من العلوم يتعلقان به، أولها العلوم التي تتعلق بدراسته ككائن حي– **نفساً وجسداً**– لمعرفة خصائصه النفسية والحيوية والفيزيائية التي تمكّن من تحديد العلاقة النفعية المثلى بينه وبين زينة الحياة الدنيا، بما يحفظ عليه حياته ويحفظ التوازن الكلى للبيئة. لقد أنبت الله تعالى في الأرض من كل شيء وَٱلسَّمَآءَموزون، ولكن الإنسان هو الذي يقيم هذا الوزن بالقسط، أو يخسره: (وَلَا بِٱلۡقِسۡطِ ٱلۡوَزۡنَ وَأَقِيمُواْ ﴿٨﴾ ٱلۡمِيزَانِ فِي تَطۡغَوۡاْ أَلَّا ﴿٧﴾ ٱلۡمِيزَانَ وَوَضَعَ رَفَعَهَا

ٱلۡكِتَٰبَ مَعَهُمُ وَأَنزَلۡنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ رُسُلَنَا أَرۡسَلۡنَا لَقَدۡ)(الرحمن)؛ (٩ ٱلۡمِيزَانَ تُخۡسِرُواْ لَا إِنَّهُۥ تُسۡرِفُوٓاْ وَلَا وَٱشۡرَبُواْ وَكُلُواْ)الحديد)؛ (٢٥)(بِٱلۡقِسۡطِ ٱلنَّاسُ لِيَقُومَ وَٱلۡمِيزَانَ ٱلۡكَيۡلَ فَأَوۡفُواْ رَّبِّكُمۡ مِّن بَيِّنَةٞ جَآءَتۡكُم قَدۡ)(الأعراف)؛ (٦ ٱلۡمُسۡرِفِينَ تُحِبُّ إِصۡلَٰحِهَا بَعۡدَ ٱلۡأَرۡضِ فِي تُفۡسِدُواْ وَلَا أَشۡيَآءَهُمۡ ٱلنَّاسَ تَبۡخَسُواْ وَلَا وَٱلۡمِيزَانَ)(الأعراف). ٨٥ مُّؤۡمِنِينَ كُنتُم إِن لَّكُمۡ خَيۡرٞ ذَٰلِكُمۡ

ثم هناك العلوم المتعلقة بالإنسان ككائن مُكلّف في إطار مجتمعي، وهى علوم بعضها يتعلق بدراسة المقاصد التي يريد الخالق من الإنسان تحقيقها، والأحكام الشرعية التي عليه الالتزام بها ليتمكن من تحقيق تلك المقاصد، وهي عموماً العلوم التي تحكم ميزان التفاعل بين المتغيرات الثلاثة "**النفس،المال،البنون**"، والإطار المجتمعي المتولد عن هذا التفاعل، ومنها علوم المقاصد وعلوم الفقه، بما يحقق شكر النعمة. وبعض هذه العلوم يتعلق بالأخلاق وبتزكية النفس وتربيتها، في إطار فهمنا لأخلاق التقوى والفجور، وتفاعلها مع الابتلاء الثاوي في زينة الحياة الدنيا. وهي جميعها علوم معيارية تتعلق بحفظ نظام الاجتماع التوحيدي، من جانب الوجود، في مسار التوحيد على الدوام.

ولكن تفاعل المجتمع بمقتضى المقاصد والأحكام والسياسات الشرعية، وأخلاق التقوى، ومحاولة المكلفين توفيق أوضاعهم لتصبح مقاصدهم وأفعالهم وتدافعهم وفق ما جاء به الشرع، أي تأسيس الاجتماع التوحيدي على مبدأ **تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح** (الدالة التوحيدية)، يؤدي بعد حين إلي ظهور أنماط من السلوك والعادات الراشدة الراتبة "Righteous Regularities" ،

تنجم عنها بالضرورة ظواهر اجتماعية تكون أحد الأسباب الداعية إلي نشأة علوم اجتماعية توحيدية تهتم بدراسة تلك الظواهر. وهذه الظواهر الاجتماعية هي البشير الذي يدل علماء ومنفذي السياسات الشرعية على اتجاهات المجتمع، ومن ثم على ثمار تصوراتهم الكلية وخططهم العلمية وبرامجهم التنفيذية. ورغم أن هذه الأنماط السلوكية الراشدة الراتبة لا تمثل سننا في حد ذاتها، إلا أنها بانتظامها هذا تمثل العامل الحاسم في تحقيق Laws"ثابتة" سنن الله الاجتماعية الجالبة للنفع بإذن الله، التي تتفعّل بالفعل الراشد يأتي به
لَئِن رَبُّكُمْ تَأَذَّنَ وَإِذْالمؤمن، أفرادا وجماعة. من هذه السنن **سنة الشكر:** (
فِينَا جَٰهَدُواْ وَٱلَّذِينَ)(إبراهيم)؛ ومنها **سنة الهداية:**((٧) لَأَزِيدَنَّكُمْ شَكَرْتُمْ
)(العنكبوت)؛ ومنها **سنتيْ الفرَج** (٦٩) ٱلْمُحْسِنِينَ لَمَعَ ٱللَّهَ وَإِنَّ سُبُلَنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
وَمَن يَحْتَسِبُ لَا حَيْثُ مِنْ وَيَرْزُقْهُ (٢) مَخْرَجًا لَّهُۥ يَجْعَل ٱللَّهَ يَتَّقِ وَمَن (**:والحسْب**
قَدْرًا شَيْءٍ لِكُلِّ ٱللَّهُ جَعَلَ قَدْ أَمْرِهِۦ بَٰلِغُ ٱللَّهَ إِنَّ حَسْبُهُۥٓ فَهُوَ ٱللَّهِ عَلَى يَتَوَكَّلْ
أُنثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ مِّن صَٰلِحًا عَمِلَ مَنْ)(الطلاق)؛ ومنها **سنة الحياة الطيبة:** ((٣)
يَعْمَلُونَ كَانُواْ مَا بِأَحْسَنِ أَجْرَهُم وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ طَيِّبَةً حَيَوٰةً فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ مُؤْمِنٌ وَهُوَ
ٱلَّذِى وَهُوَ)(النحل)؛ ومنها أم السنن الاجتماعية، وهي **سنة الابتلاء والفتنة:** ((٩٧)
أَيُّكُمْ لِيَبْلُوَكُمْ ٱلْمَآءِ عَلَى عَرْشُهُۥ وَكَانَ أَيَّامٍ سِتَّةِ فِى وَٱلْأَرْضَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ خَلَقَ
وَهُوَ عَمَلًا أَحْسَنُ أَيُّكُمْ لِيَبْلُوَكُمْ وَٱلْحَيَوٰةَ ٱلْمَوْتَ خَلَقَ ٱلَّذِى(هود)؛ ((٧) عَمَلًا أَحْسَنُ
عِندَهُۥٓ ٱللَّهَ وَأَنَّ فِتْنَةٌ وَأَوْلَٰدُكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ أَنَّمَآ وَٱعْلَمُوٓاْ)(الملك)؛ ((٢) ٱلْغَفُورُ ٱلْعَزِيزُ
وَإِلَيْنَا فِتْنَةً وَٱلْخَيْرِ بِٱلشَّرِّ وَنَبْلُوكُم ٱلْمَوْتِ ذَآئِقَةُ نَفْسٍ كُلُّ)(الأنفال)؛ ((٢٨) عَظِيمٌ أَجْرٌ
لَيَأْكُلُونَ إِنَّهُمْ إِلَّآ ٱلْمُرْسَلِينَ مِنَ قَبْلَكَ أَرْسَلْنَا وَمَآ)(الأنبياء)؛ ((٣٥) تُرْجَعُونَ

وَكَانَ ۗ أَتَصْبِرُونَ فِتْنَةً لِبَعْضٍ بَعْضَكُمْ وَجَعَلْنَا ۗ ٱلْأَسْوَاقِ فِى وَيَمْشُونَ ٱلطَّعَامَ ٱللَّهَ تَنصُرُوٓاْ إِن ءَامَنُوٓاْ ٱلَّذِينَ يَٰٓأَيُّهَا)(الفرقان)؛ ومنها **سنة النصر**: (﴿٢٠﴾ بَصِيرًا رَبُّكَ ٱلنَّاسَ ٱللَّهِ دَفْعُ وَلَوْلَا)(محمد)؛ ومنها **سنة التدافع**: (﴿٧﴾ أَقْدَامَكُمْ وَيُثَبِّتْ يَنصُرْكُمْ ٱلْعَٰلَمِينَ عَلَى فَضْلٍ ذُو ٱللَّهَ وَلَٰكِنَّ ٱلْأَرْضُ لَّفَسَدَتِ بِبَعْضٍ بَعْضَهُم)(البقرة)....الخ. ﴿٢٥١﴾

هذه العلوم الاجتماعية المؤسسة على معطيات النموذج التوحيدي منها الوصفي والبعض الآخر معياري، ولكن يجب أن تؤسس جميعها على المفهوم القرآني للسنن الاجتماعية، فهي قوانين ربانية يدخل في دائرة عملها الإنسان بفعله فتتفعّل وتتحقق نتائجها في الواقع الاجتماعي والطبيعي، ولو بعد حين؛ فهي لا فِى ٱللَّهِ سُنَّةَتتخلف أبدا، متى ما تحققت شروطها، تماما كالقوانين الطبيعية: (خَلَتْ قَدْ ٱلَّتِى ٱللَّهِ سُنَّةَ)(الاحزاب)؛ (﴿٦٢﴾ تَبْدِيلاً ٱللَّهِ لِسُنَّةِ تَجِدَ وَلَن ۖ قَبْلُ مِن خَلَوْاْ ٱلَّذِينَ ٱلْأَرْضِ فِى فَسِيرُواْ سُنَنٌ قَبْلِكُمْ مِن خَلَتْ قَدْ)(الفتح)؛ (﴿٢٣﴾ تَبْدِيلاً ٱللَّهِ لِسُنَّةِ تَجِدَ وَلَن ۖ قَبْلُ مِن وَلَٰكِنَّ وَعْدَهُۥ ٱللَّهُ تُخْلِفُ لَا ۖ ٱللَّهِ وَعْدَ)(آل عمران)؛ (﴿١٣٧﴾ ٱلْمُكَذِّبِينَ عَٰقِبَةُ كَانَ كَيْفَ فَٱنظُرُواْ)(الروم). ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ لَا ٱلنَّاسِ أَكْثَرَ

وحتى تكتمل الخارطة الكلية للعلم الإسلامي في مجال السنن الاجتماعية سوف نستدعي هذه الجزئية من النموذج المعرفي الدنيوي الذي سوف يرد الحديث عنه لاحقا، وقد قلنا من قبل إن العلم الذي ينتجه هذا النموذج في مجال الاجتماع الإنساني هو جزء أصيل من العلم الإسلامي لأنه يتعلق بحفظ مجتمع التوحيد(الدين) من جانب العدم. إذا نظرنا إلي الدالة الدنيوية فسوف نتبين أمرين

هامين فيها، أولهما، بجانب كونها أساس النموذج الدنيوي، أنها دالة قوية الحضور والتأثير في مقاصد وسلوك المكلّف المسلم، ومن ثم في المجتمع المسلم، وذلك بمقتضى الفطرة الإلهية المتجلية في **خطة الخلق العامة**. بل إن الواقع التاريخي للمسلمين يقول إن تأثير هذه الدالة أكبر بكثير على مجرياته، أفرادا وجماعة، من الدالة التوحيدية. لذلك نجد أن الواقع التاريخي لأي مجتمع إسلامي يعبر في حقيقته عن أثر التدافع بين الدالة التوحيدية والدالة الدنيوية على أحواله، أفرادا وجماعة، بحيث يميل ذلك الواقع أكثر إلى تجليات النموذج الدنيوي، في الزمان والمكان، عندما يغلب أثر الدالة الدنيوية على شئونه، والعكس صحيح. فهو دائما مجتمع هجين، لا توحيدي خالص ولا دنيوي خالص. الأمر الثاني هو أن هناك مجتمعات دنيوية"علمانية"، هي غالب المجتمعات البشرية عبر التاريخ، تنشأ على معطيات هذه الدالة، وتكون ذات تأثير وتأثر بالواقع الاجتماعي للمسلمين الذي ينجم عن التجلّي التاريخي للدالة التوحيدية، سواء كان هذا الواقع مجتمعا إسلاميا مستقلا، أو أفرادا وجماعات إسلامية تعيش في المجتمع الدنيوي المعني، أو أفرادا وجماعات دنيوية تعيش في المجتمع الإسلامي. ونعبّر عن هذا بقولنا إن الدالتين تتزاحمان بوقعهما في الزمان والمكان؛ وهو تزاحم صراعي في الغالب، ولكنه قد

إِذْ مَعَهُۥ وَٱلَّذِينَ إِبْرَٰهِيمَ فِىٓ حَسَنَةٌ أُسْوَةٌ لَكُمْ كَانَتْ قَدْيكون صراعا عنيفا حاسما: (وَبَيْنَكُمُ بَيْنَنَا وَبَدَا بِكُمْ كَفَرْنَا ٱللَّهِ دُونِ مِن تَعْبُدُونَ وَمِمَّا مِنكُمْ بُرَءَٰٓؤُاْ إِنَّا لِقَوْمِهِمْ قَالُواْ وَمَآ لَكَ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لِأَبِيهِ إِبْرَٰهِيمَ قَوْلَ إِلَّا وَحْدَهُۥ بِٱللَّهِ تُؤْمِنُواْ حَتَّىٰٓ أَبَدًا وَٱلْبَغْضَآءُ ٱلْعَدَٰوَةُ ٱلْمَصِيرُ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ تَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ رَبَّنَا شَىْءٍ مِن ٱللَّهِ مِنَ لَكَ أَمْلِكُ بِٱلَّذِىٓ ءَامَنُواْ مِّنكُمْ طَآئِفَةٌ كَانَ وَإِن)(الممتحنة)؛ وقد يكون صراعا حذرا: (۝

ٱلۡحَٰكِمِينَ خَيۡرُ وَهُوَۚ بَيۡنَنَا ٱللَّهُ يَحۡكُمَ حَتَّىٰ فَٱصۡبِرُواْ يُؤۡمِنُواْ لَّمۡ وَطَآئِفَةٌۢ بِهِۦٓ أُرۡسِلۡتُ لَآ وَيَٰقَوۡمِ)(الأعراف)؛ وقد يكون صراعا جدليا ينتهي نهاية دراماتيكية: (٨٧ رَبِّهِمۡۚ مُّلَٰقُواْ إِنَّهُمۡۚ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ بِطَارِدِ أَنَا۠ وَمَآۚ ٱللَّهِ عَلَىٰ إِلَّآ أَجۡرِيَ إِنۡ مَالاً عَلَيۡهِ أَسۡـَٔلُكُمۡ تَذَكَّرُونَ أَفَلَاۚ طَرَدتُّهُمۡ إِن ٱللَّهِ مِنَ يَنصُرُنِي مَن وَيَٰقَوۡمِ ٩٠ تَجۡهَلُونَ قَوۡمًا أَرَىٰكُمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَقُولُ وَلَآ مَلَكٌ إِنِّيٓ أَقُولُ وَلَآ ٱلۡغَيۡبَ أَعۡلَمُ وَلَآ ٱللَّهِ خَزَآئِنُ عِندِي لَكُمۡ أَقُولُ وَلَآ ٩١ لَّمِنَ إِذًا إِنِّيٓ أَنفُسِهِمۡ فِيٓ بِمَا أَعۡلَمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا ٱللَّهُ يُؤۡتِيَهُمُ لَن أَعۡيُنُكُمۡ تَزۡدَرِيٓ لِلَّذِينَ مِنَ كُنتَ إِن تَعِدُنَآ بِمَا فَأۡتِنَا جِدَٰلَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جَٰدَلۡتَنَا قَدۡ يَٰنُوحُ قَالُواْ ٩٢ ٱلظَّٰلِمِينَ يَنفَعُكُمۡ وَلَا ٩٣ بِمُعۡجِزِينَ أَنتُم وَمَآ شَآءَ إِن ٱللَّهُ بِهِۦ يَأۡتِيكُم إِنَّمَا قَالَ ٩٤ ٱلصَّٰدِقِينَ تُرۡجَعُونَ وَإِلَيۡهِ رَبُّكُمۡ هُوَۚ يُغۡوِيَكُمۡ أَن يُرِيدُ ٱللَّهُ كَانَ إِن لَكُمۡ أَنصَحَ أَنۡ أَرَدتُّ إِنۡ نُصۡحِيٓ ٩٥ تُجۡرِمُونَ مِّمَّا بَرِيٓءٞ وَأَنَا۠ إِجۡرَامِي فَعَلَيَّ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥۖ إِنِ قُلۡ ٱفۡتَرَىٰهُ يَقُولُونَ أَمۡ ٩٦ كَانُواْ بِمَا تَبۡتَئِسۡ فَلَا ءَامَنَ قَدۡ مَن إِلَّا قَوۡمِكَ مِن يُؤۡمِنَ لَن أَنَّهُۥ نُوحٍ إِلَىٰ وَأُوحِيَ مُّغۡرَقُونَ إِنَّهُمۡۚ ظَلَمُواْ ٱلَّذِينَ فِي تُخَٰطِبۡنِي وَلَا وَوَحۡيِنَا بِأَعۡيُنِنَا ٱلۡفُلۡكَ وَٱصۡنَعِ ٩٧ يَفۡعَلُونَ يَنتَهِ لَّمۡ لَّئِن)(هود)؛ وقد يكون صراعا باردا يعتمد على الكر والفر والمكر: (٦٠ لَا ثُمَّ بِهِمۡ لَنُغۡرِيَنَّكَ ٱلۡمَدِينَةِ فِي وَٱلۡمُرۡجِفُونَ مَّرَضٞ قُلُوبِهِم فِي وَٱلَّذِينَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَلَا)(الأحزاب)؛ وقد يكون صراعا شاملا مستداما: (٦١ قَلِيلًا إِلَّا فِيهَآ يُجَاوِرُونَكَ)(البقرة).٢١٧ ٱسۡتَطَٰعُواْ إِنِ دِينِكُمۡ عَن يَرُدُّوكُمۡ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُونَكُمۡ يَزَالُونَ

وبسبب من هيمنة هذه الدالة على زمرة الفعل في النموذج الدنيوي، وأثرها القوي على زمرة الفعل في النموذج التوحيدي، فسوف تكون هناك)، ولكنها غير راشدة، تتأسس على Rational regularitiesأفعال عقلانية راتبة(مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، تؤدي إلى بروز ظواهر اجتماعية على شاكلتها

في المجتمعين. لذلك لابد أن تبنى علومنا الاجتماعية الإسلامية، ليس فقط على قواعد الدالة التوحيدية، بل أيضاً على قواعد الدالة الدنيوية، إن أردنا الإحاطة العلمية بالظاهرة الاجتماعية، عبر الزمان والمكان، أىْ إن أردنا صفتيْ الموضوعية والعالمية لعلومنا الاجتماعية الإسلامية. وسوف تحكم هذا الجانب من العلم الاسلامي السنن الاجتماعية الجالبة للضر بإذن الله، حيث يدخل المسلم وغير المسلم دائرة تأثيرها بعمله غير الراشد(الفاسد) فتتفعّل بوقعها الضار على حياة الفرد حصرا أحيانا، ويعم ضررها بيئة الطبيعة والمجتمع لَشَدِيدٌ عَذَابِى إِنَّ كَفَرْتُمْ وَلَئِنأحايين أخرى. من هذه السنن **سنة الكفر:** (مَعِيشَةً لَهُۥ فَإِنَّ ذِكْرِى عَن أَعْرَضَ وَمَنْ)(إبراهيم)؛ ومنها **سنة المعيشة الضنكة:** (﴿٧﴾ عَن يَعْشُ وَمَن)(طه)؛ ومنها **سنةالإعشاء:** (﴿٣٤﴾ أَعْمَىٰ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَوْمَ وَنَحْشُرُهُۥ ضَنكًا)(الزخرف)؛ ومنها **سنة** ﴿٣٦﴾ قَرِينٌ لَهُۥ فَهُوَ شَيْطَنًا لَهُۥ نُقَيِّضْ ٱلرَّحْمَـٰنِ ذِكْرِ ۚ ٱلْخَيْرَٰتِ فِى لَهُمْ نُسَارِعُ ﴿٥٥﴾ وَبَنِينَ مَّالٍ مِن بِهِۦ نُمِدُّهُم أَنَّمَا أَيَحْسَبُونَ**الاستدراج:** (وَمَكْرَ ٱلْأَرْضِ فِى ٱسْتِكْبَارًا)(المؤمنون)؛ ومنها **سنة الإحاقة:** (﴿٥٦﴾ يَشْعُرُونَ لَّا بَل تَجِدَ فَلَن ۚ ٱلْأَوَّلِينَ سُنَّتَ إِلَّا يَنظُرُونَ فَهَلْ ۚ بِأَهْلِهِۦٓ إِلَّا ٱلسَّيِّئُ ٱلْمَكْرُ يَحِيقُ وَلَا ۚ ٱلسَّيِّئِ)(فاطر)؛ ومنها **سنة المحق:** ﴿٤٣﴾ تَحْوِيلاً ٱللَّهِ لِسُنَّتِ تَجِدَ وَلَن ۖ تَبْدِيلاً ٱللَّهِ لِسُنَّتِ أَثِيمٍ كَفَّارٍ كُلَّ يُحِبُّ لَا وَٱللَّهُ ۗ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَيُرْبِى ٱلرِّبَوٰا۟ ٱللَّهُ يَمْحَقُ( )(البقرة)؛....الخ. ﴿٢٧٦﴾

ومن رحمة الله بعباده أن الناس يمكنهم الفرار، بأعمالهم، من سنن الله الجالبة للضر إلى سنن الله الجالبة للنفع، قبل فوات الأوان؛ أي، الفرار من قدر الله إلى قدر الله، كما هو معلوم من قصة أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضي

الله عنه، في موقفه من وباء الطاعون الذي أصاب بعض ديار المسلمين في
)(الذاريات). ولأنّ سنن الله ﴿٥٠﴾ مُّبِينٌ نَذِيرٌ مِّنْهُ لَكُم إِنِّي ۖ ٱللَّهِ إِلَى فَفِرُّوٓاْعهده: (
الاجتماعية مرهون تحققها بأعمال الناس الإرادية، ولأنّ هذه الأعمال هي في حال تغير دائم بين الصلاح والفساد، على مستوى الفرد والجماعة، وقد تغلب أعمال الصلاح أحيانا، وقد تغلب أعمال الفساد، من حيث الكم والنوع، ولما كان تقدير كل ذلك علمه عند الله تعالى، فإنّ معرفة زمان ومكان ومدى تحقق هذه السنن، وما يترتب علي ذلك من مصالح أو مفاسد تصيب الناس، أمر يعسر ضبطه علميا، ولعل هذا من رحمة الله بالناس حتى لا يأمنوا مكره، بل
وَٱتَّقَوۡاْ ءَامَنُواْ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَ أَنَّ وَلَوۡيكونوا في حال من الترقب والحذر الدائم: (
كَانُواْ بِمَا فَأَخَذۡنَٰهُم كَذَّبُواْ وَلَٰكِن وَٱلۡأَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ مِّنَ بَرَكَٰتٖ عَلَيۡهِم لَفَتَحۡنَا
أَهۡلُ أَوَأَمِنَ ﴿٩٧﴾ نَآئِمُونَ وَهُمۡ بَيَٰتٗا بَأۡسُنَا يَأۡتِيَهُم أَن ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلُ أَفَأَمِنَ ﴿٩٦﴾ يَكۡسِبُونَ
مَكۡرَ يَأۡمَنُ فَلَا ۚ ٱللَّهِ مَكۡرَ أَفَأَمِنُواْ ﴿٩٨﴾ يَلۡعَبُونَ وَهُمۡ ضُحٗى بَأۡسُنَا يَأۡتِيَهُم أَن ٱلۡقُرَىٰٓ
لَّوۡ أَن أَهۡلِهَآ بَعۡدِ مِنۢ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُونَ لِلَّذِينَ يَهۡدِ أَوَلَمۡ ﴿٩٩﴾ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٱلۡقَوۡمُ إِلَّا ٱللَّهِ
)(الأعراف). ﴿١٠٠﴾ يَسۡمَعُونَ لَا فَهُمۡ قُلُوبِهِمۡ عَلَىٰ وَنَطۡبَعُ ۚ بِذُنُوبِهِمۡ أَصَبۡنَٰهُم نَشَآءُ

ولكن أحوال الأفراد والمجتمعات، والمصائب التي تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم، أو البركات التي تفتح عليهم من السماء والأرض، آيات تؤشر على اتجاه عمل تلك السنن، وفي هذا الإطار يأتي دور العلوم الاجتماعية في دراسة تلك الأحوال والظواهر الاجتماعية، وربطها بأعمال الناس الراتبة)Regularities(، وتصنيف هذه الأعمال من حيث صدورها عن النموذج التوحيدي أو النموذج الدنيوي، وربطها من ثم بما يناسبها من السنن الاجتماعية المستنبطة

من الوحي، أو من التاريخ(الواقع الاجتماعي)، بغرض استخلاص الآيات والعبر، ووضع السياسات الشرعية وتوفيق الأوضاع الاجتماعية، بما يؤدي إلى استدامة الصلاح، أو تدارك الفساد. إن الوحي الكريم، قرآنا وسنة، ثري بالسنن الاجتماعية الإلهية التي تغطي جميع جوانب الظاهرة الاجتماعية، ويجب استخلاص تلك السنن وتصنيفها والإفادة منها في تأسيس العلوم الاجتماعية الإسلامية.

وعلى أساس من معطيات هاتين الدالتين المعبرتين عن النموذجين المعرفيين، وعلى أساس من التفاعل بينهما في إنتاج الاجتماع الإنساني بكل تجلياته عبر التاريخ تتأسس علوم التاريخ والعلاقات الدولية وغيرها من العلوم المعنية بالاجتماع الإنساني في جملته، وفي ديناميته.

ما اصطلحنا على تسميته في هذا البحث بالنظام المعرفي المستنبط من القرآن المتعلق بالظاهرة الاجتماعية يؤكد أن مبتدأ العلم التوحيدي لهذه الظاهرة لا بد أن يكون الوحي الكريم، ذلك أن المبدأ الكلى الأساس الذي تقوم عليه الدالة التوحيدية، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح، المحقق للشكر في زينة الحياة الدنيا، الذي يضرب بجذوره في عالمي الغيب والشهادة، ما كان له أن ينشأ من المجال الكوني والعقلي وحدهما. وقد يقول قائل إن المبدأ الكلى الثاني(تعظيم متاع الحياة الدنيا) الذي تقوم عليه الدالة الدنيوية، التي هي أصل من أصول النظام المعرفي المذكور، قد أمكن اكتشافه من خلال النظر في المجال الكوني وحده، كما هو معروف في العلوم الاجتماعية الغربية. ولكن نؤكد أن هذا المبدأ، الذي يقوم عليه

غالب العلوم الاجتماعية الغربية، هناك من الشواهد التي تفنّده بقدر تلك التي تؤيده، مما يضعف مركزه كمبدأ تقوم عليه العلوم الاجتماعية الغربية. ولكن هذا المبدأ يأخذ قيمته العلمية عندما يكون منشأه الوحي، الذي هو علم يقيني من الله تعالى، ولن يلعب دوره الحقيقي في بناء العلم الاجتماعي إلا في إطار المنظومة المعرفية القرآنية المبينة لعلاقته بالمبدأ الأول(تعظيم العمل الصالح) في إطار **خطة الخلق العامة.** إن استبعاد الوحي كمصدر للعلم الاجتماعي في النموذج الدنيوي الوضعي الغربي غيّب السنن الاجتماعية الربانية المرتبطة بأعمال الناس الإرادية المنطلقة من مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، ولم يبق للنموذج إلا الأفعال الإرادية الراتبة التي فعّلت تلك السنن، وآثارها من الظواهر الاجتماعية التي تهتم بدراستها العلوم الاجتماعية للنموذج. ولهذا السبب فإن النموذج الدنيوي فقير جدا في المعلومات المتعلقة بالاجتماع الإنساني مما لا يسمح بإنشاء علوم اجتماعية حقة تستوفي شروط العلم. وعبثا يحاول النموذج المعرفي الوضعي الغربي، باستخدام منهج العلوم الطبيعية، ربط الظواهر الاجتماعية بتلك الأفعال الراتبة في علاقة سببية بغية تفسيرها والتنبؤ بحدوثها. ولكن لما كانت الأسباب المفسِّرة إن هي إلا أفعال بشرية إرادية، يمكن الإتيان بنقيضها أو بغيرها من ذات الفاعلين، فإن من السهولة دحض العلاقة السببية أو القانون الاجتماعي المزعوم. ولعل في قوانين العرض والطلب الاقتصادية، وهي القوانين الأشهر في علم الاقتصاد الغربي، خير دليل على ما ندعيه، فقد ترتب على قانون تعظيم المتاع الدنيوي، باعتباره القانون العام الذي يفسر جملة الفعل الاقتصادي، أن البائعين في السوق، الذين يمثلون جانب العرض، يسعون دائما إلى تعظيم أرباحهم، وأن المشترين، الذين يمثلون جانب الطلب،

يسعون إلى تعظيم متاعهم من السلع، وتقوم الأسعار، المحددة بطريقة حرة في السوق، بحفظ التوازن بين العرض والطلب. بناء على هذا القانون إذا زاد الطلب على السلع عن عرضها، ولم يكن من الممكن الاستجابة الفورية من خلال زيادة العرض، فإن القانون يقول بزيادة الأسعار تلقائيا بالقدر الذي يمتص الطلب الزائد ويعيد التوازن بينه والعرض، والعكس صحيح. هذا القانون يعتمد في تحققه على أفعال إرادية راتبة يأتي بها البائعون والمشترون، في إطار افتراضات تتعلق بدوافعهم النفسية وأنماطهم السلوكية المستقاة من النموذج الدنيوي. وفي الظروف العادية للسوق، في إطار النموذج الدنيوي، فقد أثبت القانون مصداقية عالية في الواقع، ولكن تظل الحقيقة أنه وفي ذات الظروف العادية يمكن أن يتخلف القانون بحيث يقرر كل أو بعض البائعين بإرادتهم الحرّة بيع سلعهم بذات الأسعار القديمة رغم ارتفاع الطلب عليها، ووجود فرصة لتحقيق مزيد من الأرباح برفع الأسعار. وهناك الكثير من المبررات الاقتصادية الموضوعية والأخلاقية التي تدفع إلى هذا النوع من الفعل، ومن ثم دحض القانون. أما في إطار النموذج التوحيدي، حيث دوافع وأنماط الفعل الاقتصادي جد مختلفة عن نظيرتها في النموذج الدنيوي، فيكفينا أن نذكر قصتين من التاريخ الإسلامي على سبيل المثال، ليتأكد لنا أن قوانين العرض والطلب لا تعدو كونها أنماط سلوك راتبة يمكنها أن تتغير إراديا في أي وقت. القصة الأولى، وهي مشهورة، تتعلق بالصحابي الجليل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة وقد أقبلت عيره محملة ببضائع تجارية من بلاد بعيدة، وكانت المدينة حينها تعاني شحا في تلك السلع، مما يعني ارتفاع الطلب عليها والوضع الاحتكاري لمالكها، وهو وضع مثالي لتحقيق الأرباح بالتحكم في

السعر. وجاءه قومه من تجار المدينة يهرعون إليه يطلبون شراء حمل القافلة، فأفادهم أن تاجرا واحدا قد عرض عليه عشرة أضعاف السعر الذي عرضوه. ولما رأى إنكارهم لهذا التاجر، وهم جملة تجار المدينة، أخبرهم بأنه الله سبحانه وتعالى، حيث الحسنة بعشرة أمثالها، ثم تصدق بكل حمل القافلة. القصة الثانية تروى في كتب التصوف، وتتعلق بأحد التجار من صالح المؤمنين حيث اعتاد أن يأتيه زبون محدد يشتري منه بضاعة بفلوس، فيقبض منه فلوسه ويدفع إليه بالبضاعة. وذات يوم ذهب التاجر لبعض شأنه وأقام ابنه مكانه في المتجر، وجاء الزبون المعني كالعادة فدفع بفلوسه إلى الإبن وطلب البضاعة، ولكن الإبن اليقظ سرعان ما اكتشف أن فلوس الزبون مغشوشة، فردّها إليه مع سيل من الشتائم. استرجع الزبون فلوسه وغادر مسرعا، ولما عاد الأب أخبره ابنه بالقصة، فحزن الأب من تصرف ابنه وبدا عليه الهم والغم. ولما سأله ابنه عن ذلك أخبره بأنه على علم بالفلوس المغشوشة طيلة الزمان الذي ظلت تجري فيه المعاملة مع هذا الزبون، وقد أسرّها في نفسه ولم يبدها له، وأنه ظل يستلمها منه ثم يقوم بحفظها في مكان آمن حتى يحصر شرّ هذه الفلوس المغشوشة في تاجر واحد من سوق المسلمين، محتسبا الأجر عند الله تعالى. أما الآن فسوف يذهب هذا الزبون بفلوسه المغشوشة إلى تاجر آخر، وقد يقوم ذاك التاجر، وهو لا يعلم وقد يعلم، بتمريرها في معاملة تجارية إلى آخر، وهكذا إلى أن يعم شرّها سوق المسلمين.

منشأ العلوم الطبيعية في النموذج المعرفي التوحيدي نقدّر أنه يعود إلى أصلين: الأول؛ هو مقتضى الناتج الإيماني في **(خطة الخلق العامة)** حيث الحاجة إلى التفكّر العلمي في خلق السموات والأرض، والسنن التي تحكمها،

آيات خلق على الخالق، الثاني؛ منشؤه عمارة الأرض، الناجم عن الإقبال على زينة الحياة الدنيا، المقتضي لمعرفة أسرارها وسننها التي بها يمكن تسخير الطبيعة والانتفاع بمواردها، مما يمكّن من القيام بواجبات الاستخلاف على الأرض. والمسلمات القبلية لهذه العلوم ينبغي أن تأتي من الوحي الكريم، بينما قوانينها العلمية تأتي من التدبّر في الوحي والتفكّر في خلق السماوات والأرض. وغني عن القول أن هذه العلوم التي تتولد عن تفاعلات عناصر **(خطة الخلق العامة)** ما هي إلا إضافة إلى الموروث من العلوم الإسلامية التي ذكرناها سابقاً، والتي هي أيضاً ثمرة تاريخية لذات التفاعلات الإبتلائية. ولكن حتى هذه العلوم الإسلامية الموروثة تحتاج إلى تقييم مستمر في قضاياها ومنهجيتها بحسب ما يستجد من فهم تقتضيه ديناميكية **(خطة الخلق العامة)**، زمانا ومكانا.

٣,١,٤,١- العالِم:

نقصد بالعالم هنا مجموعة الاستعدادات النفسية والذهنية اللازم توفرها عند الشخص الذي ينوي إنتاج العلم التوحيدي، الذي رسمنا خارطته العريضة آنفاً. ولا شك أن طالب العلم التوحيدي هو شخص يسعى، على المستوى النفسي، للتحقق بقول الله تعالى: (تَخۡشَى إِنَّمَا ۗ كَذَٰلِكَ أَلۡوَٰنُهُۥ مُخۡتَلِفٌ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلدَّوَآبِّ ٱلنَّاسِ وَمِنَ)(فاطر). وهو شخص مدرك لمقتضى ﴿٢٨﴾ غَفُورٌ عَزِيزٌ ٱللَّهَ إِنَّ ۗ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ عِبَادِهِ مِنۡ ٱللَّهَ)(البقرة). وهكذا فإن ﴿٢٨٢﴾ عَلِيمُۢ شَيۡءٖ بِكُلِّ وَٱللَّهُ ۗ ٱللَّهُ وَيُعَلِّمُكُمُ ۗ ٱللَّهَ وَٱتَّقُواْ قوله تعالى: (طالب العلم التوحيدي شخص مشمر للتقوى، بكل ما تقتضيه من مجاهدة وما تتطلبه

من علم. وعلى المستوى العقلي فهو شخص يطلب العلم، أولا؛ ليعقل آيات الله المجلوّة في كونه، وآياته المتلوّة في قرآنه، ليتحقق له إيمانه، ثم، ثانيا؛ لتسخير ذلك العلم للقيام بواجب الاستخلاف. إذن فهو شخص تشكل (الرؤية الكونية الإسلامية) منطلقه لفهم الكون والحياة، ولهذا فإن قيم الإسلام ومقاصده الحياتية هما المعيار الذي يحدد أولويات البحث وضوابطه. كذلك فهو شخص لا يدعي الحياد القيمي كباحث ولا يستطيعه تجاه قضاياه التي يبحثها، لا سيما في مجال الاجتماع الإنساني حيث الأحكام القيمية جزء أصيل من المنهج.

٤,١,٤,١- المنهجية:

لأن هذا الركن هو أهم الأركان في إطار نظرية المعرفة، وهو أعقدها كذلك فقد رأينا أن نبدأ بإيراد عينة من الآيات القرآنية التي سوف نبنى عليها ما يتبع من حديث.

(١) (وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨)(النحل)؛

(٢) (وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦)(الإسراء)؛

(٣) (أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦)(الحج)؛

(٤) (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾)(الأعراف)؛

(٥) (وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾)(النجم)؛

(٦) (وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾)(الروم)؛

(٧) (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾)(محمد).

لقد تحدثنا في فقرات سابقة عن مصادر العلم التوحيدي وعن محتواه وعن العالِم، وقد آن لنا أن نحدد طريق الحصول علي هذا العلم. إن الآية الكريمة رقم (١) تربط لنا بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من بعد جهل وبين وسائل تحصيل ذلك العلم، ألا وهي: السمع؛ البصر؛ والفؤاد، وقد أكدت الآية رقم (٢) هذه الحقيقة. ولكن العملية الإدراكية في القرآن عملية معقدة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم العلم فيه، وارتباط كل ذلك بمدخل الناس إلى زينة الحياة الدنيا: أهو مدخل إيماني قائم على دوافع التقوى في النفس؟ أم هو مدخل شهواني قائم على دوافع الفجور فيها؟ فمن حَيَاتُنَا إِلَّا هِيَ إِنْحيث يكون إقبال الإنسان على زينة الحياة الدنيا قائما على مبدأ: ( )(المؤمنون)، وهو مدخل مبرراته قيمية لا ﴿٣٧﴾ بِمَبْعُوثِينَ نَحْنُ وَمَا وَنَحْيَا نَمُوتُ ٱلدُّنْيَا علمية، يكون قد حدد وبصورة حاسمة موقفه الابستمولوجي كذلك. فمن الناحية الابستمولوجية لا يتجاوز علم من كان خياره (الحياة الدنيا) معرفة ظاهرها، أي إن أقصى ما يصل إليه هو علم السنن الكونية. وهذا ما أشارت إليه الآيتان (٥،٦)،

حيث ربط المولى سبحانه وتعالى بين التولي عن ذكره والغفلة عن الآخرة وبين قصر العلم على ظاهر الحياة الدنيا، وأنّ علم من كانت الدنيا همّه لا يمكن أن يتجاوز ظاهرها. ومرد ذلك فيما يبدو لي إلى سببين: السبب الأول هو أن خيار الحياة الدنيا إنما هو خيار يقوم على اللهو واللعب؛ أي تعظيم اللذّات والمسرّات(المتاع) الدنيوية: (وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهۡوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ
يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾)(الأنعام)؛ (ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ
وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ
يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا
مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾)(الحديد). والذي تتحصر همته في تعظيم اللهو واللعب لا يحتاج في ذلك إلى أكثر من معرفة السنن الكونية، ومن ثم توظيفها لخدمة ذلك الهدف. وعلم السنن ووسائل تحصيله متاح للجميع، مؤمنهم وكافرهم؛ وما كان عطاء ربك محظورا. وهذه الوسائل هي في مجملها حواس الإنسان، لا سيما السمع والبصر، ثم إعمال الذهن بقواعده المنطقية في المعلومات الحسية المتحصلة للوصول إلى نتائج منطقية، وفرضيات تجريبية يمكن التأكد من صحتها عن طريق التجربة في الواقع المشاهد. أما السبب الثاني فيعود إلى أن من يجعل همه تعظيم متاع الحياة الدنيا لا يفطن إلى وجود حقيقة أخرى وراء ظاهر هذه الحياة، ومن ثم يسقط من حسابه أي علم متعلق بهذه الحقيقة، ونحسب أن ذلك معنى قوله تعالى: (ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾)(النجم). والحقيقة المؤيدة بالواقع، أن السعي لتعظيم متاع الحياة الدنيا يرسخ في النفس أخلاق الفجور، مثل الشح والبخل والكبر والحسد والنفاق..إلخ، وما ينجم عن ذلك من أعمال فاسدة

في الأرض. وكلما رسخت هذه الدوافع في النفس، وكلما استدامت الأعمال الفاسدة بسبب ذلك، كلما صارت حجاباً كثيفاً يرين على القلب حتى تعرض النفس عن مجرد التفكير في إمكانية وجود حقائق وراء ظاهر الحياة الدنيا. بل إن النفس التي أطغاها الإنغماس في الشهوات لتجحد ذلك العلم، وإن جاءها به خبر يقين كالوحي: (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)(النمل)؛ (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾)(الأنعام). ويؤدي خيار الحياة الدنيا إلى حصر الأسباب والعلل للظواهر الكونية، طبيعية كانت أم إنسانية، في إطارها المادي البحت، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حِكَم وعبر تنطق بها تلك الظواهر، أو من أسباب وعلل تتجاوز ما هو ظاهر للحواس. وإلى هذا القصور في الإدراك تشير الآيات (٣) و(٤) حيث يعجز القلب عن تحصيل الفقه المطلوب من الظاهرة الكونية. وقد يصل الأمر في اتباع الهوى إلى أن يطبع الله على القلب فلا يترك الوارد إليه، من نبأ عن طريق السمع، أو مشاهدة عن طريق النظر، أثراً يفيد صاحبه. وإلى هذه الحقيقة يشير مضمون الآيات (٣)، (٤)، و (٧).

الآيات القرآنية السابقة والقول الذي تلاها، تقودنا إلى القول بأن الجسر الذي يعبر عليه الإنسان من العلم بظاهر الحياة الدنيا إلى علم آياتها، ومن ظاهر نصوص القرآن إلى جواهر معانيه، إنما هو فقه القلوب. وفقه القلوب إنما ينال بتزكية النفس وذلك بتطهيرها من أخلاق الفجور، والتوبة عن مآلاتها العملية، وتربيتها على أخلاق التقوى، وحملها على العمل الصالح. وهذا يعني أن التربية الإسلامية للإنسان، القائمة على منهج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد

فصّلها أئمة الإسلام، هي من صميم منهجية المعرفة الإسلامية. ومن صميم التربية الإسلامية للنفس أن ترى الكون بظواهره وعلله وأسبابه من خلال العين القرآنية. والعين القرآنية لا تقف عند ظاهر الحياة الدنيا للبحث عن أسباب الظواهر أو غاياتها، بل تزاوج بين علوم الخبر القادم من وحي السماء وعلوم المختبر الناشئة من الحس والتجربة للوصول إلى الأسباب والغايات التي تحكم الظواهر الكونية. ذلك أن العين القرآنية عين مربوطة بأحوال القلب، تبصر حين يبصر، وتعمى حين يعمى. وينطبق هذا على الأذن القرآنية، وجميع وسائل الإدراك عند المسلم. وإبصار القلب أو عماه مرهون بموقف الإنسان من الابتلاء الثاوي في زينة الحياة الدنيا، كما تفصله **(خطة الخلق العامة)**.

٥,١,٤,١- التطبيقات:

أما وقد تحدثنا عن طبيعة العلم التوحيدي، ومصادره، وطبيعة العالِم، ومنهجيته، وجب علينا أن نختم بالهدف أو الغرض أو التطبيقات التي يراد بها ذلك العلم. إن العلم هو وسيلة لتحقيق غاية، وتلك الغاية في إطارها الإسلامي إنما هي تحقيق عبادة الله القائمة على مبدأ استخلاف الإنسان في الأرض. إذن العلم التوحيدي وسيلة يستخدمها الخليفة(الإنسان) لتنفيذ أمر المستخلِف(الله) فيما استخلف فيه(الأرض). وكل إنسان في مجالات حياته المتعددة هو خليفة لله في تلك المجالات، ومطلوب منه أن يراعي أمر المستخلِف فيها. وجوهر الاستخلاف يدور حول تعامل الإنسان مع زينة الحياة الدنيا، وما ينبغي عليه القيام به من واجب الشكر المقتضي للعلم والإيمان والعمل الصالح.

٢,٤,١- النموذج المعرفي الدنيوي المستنبط من القرآن:

نود هنا أن نستخلص من القرآن الكريم أهم معالم النموذج المعرفي الدنيوي في إطار أركان العلم الخمسة حتى تتضح الرؤية في مدى قصوره عن نظيره التوحيدي، وأنه إنما يمثل حالة خاصة فيه، أى أن النموذج التوحيدي يستوعبه ويتجاوزه. كذلك نود أن نذكر هنا أن استخلاص النموذج المعرفي الدنيوي من القرآن إنما صار ممكنا نتيجة لطبيعة **(خطة الخلق العامة)**، القائمة على ثنائية النفس البشرية وابتلائها بالاختيار في مجال زينة الحياة الدنيا بين (الدار الآخرة) و(الحياة الدنيا).

١,٢,٤,١- مصدر العلم:

(١) (وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩)(الانعام)
(٢) (إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧)(المؤمنون)
(٣) (وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤)(الجاثية)
(٤) (وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣)(يوسف)

تخبرنا الآيات السابقة أن أكثر الناس حصروا اعتقادهم في الحياة الدنيا وحدها، وكفروا بما وراءها من عالم الغيب. وترتب على هذا الخيار أن أصبح مصدر العلم الوحيد بالنسبة لمن آثروا الحياة الدنيا هو ظاهرها، أي عالم المحسوسات. وهذه النتيجة تتطابق تماماً مع ما ذهبت إليه الفلسفة الوضعية.

٢,٢,٤,١-محتوى العلم:

(١) (يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾)(الروم)

(٢) (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾)(النجم)

(٣) (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)(يونس)

(٤) (وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾)(النجم)

(٥) (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾)(النساء)

(٦) (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾)(الجاثية)

(٧) (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾)(النجم)

(٨) (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾)(الأنعام)

(٩) (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾)(الأنعام)

(١٠) (وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾)(الأنعام)

(١١)(وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾)(النساء)

تخبرنا الآيات المذكورة في (١) و(٢) إنّ الدنيويين عندما جعلوا مصدر علمهم الوحيد هو عالم المحسوسات، كان لابد أن ينحصر علمهم فيما يظهر منها لوسائل الحس، أي علم السنن، طبيعية كانت أم اجتماعية. ذلك أن علم الآيات يقتضي الإيمان بعالم الغيب، ومن ثم فقه القلوب، وهو ما جحده الدنيويون. الآيات من (٣-١١) تصف الواقع المعرفي للبشر الممتد عبر تاريخهم الطويل، وفي قضايا معرفية شتى تغطي كل المساحة المعرفية للبشر، الممتدة بين عالمي الغيب والشهادة، ثم تلخّص القضية المعرفية في قانون ذهبي هو: **(إنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئا)**. وهذا القانون يصدق على مستوى القضية المتعلقة بالحقيقة، كما يصدق على مستوى القضية المعرفية. فالحق هو الذي قام عليه الوجود، وهو الذي ينبغي أن يكون متعلق ومطلوب العلم البشري، سواء كان فيما يتعلق بعالم الغيب، أو عالم الشهادة. فمتعلق العلم البشري إما أنه موجود فيصبح وجوده حقا، وإما أنه غير موجود فيصبح وجوده ظنا عند الناس، ولن يغني الظن من الحق شيئا في هذه الحالة. فالله تعالى إما أنه موجود أو غير موجود، وعيسى، عليه السلام، إما أنه قتل أو لم يقتل، والشخص الذي اتهم بقتله إما أنه قتله أو لم يقتله، وذرة الماء إما أنها تتكون من ذرّتيْ أيدروجين وذرة أوكسجين وإما لا.

والإدراك البشري إما أنه يبحث عن الحق فيصيبه فيصبح علما، أو يخطئه فيصبح ظنا، أو أنه لا يبحث عن الحق فيصبح أيضاً ظنا وهوى متبع، وكل ما يقوله من هذا المنطلق فهو تخرّص. وكلتا الحالتين لا يغني الظن فيهما من الحق شيئا، مهما ترجح الظن لدى صاحبه. أما اليقين فهو مقياس التحقق من مطابقة الاعتقاد الجازم الذي نحمله للحق الذي نطلبه في المعلوم، وهو درجات يبدأ بمجرد اليقين وينتهي بعين اليقين وحق اليقين.

والمعرفة البشرية إذا طلبت الحق في أي شيء فإن الإشكال الذي يواجهها دائماً هو المنهجية التي تمكنها من الإرتقاء بمعرفتها إلى درجة العلم، أي اليقين من أن الإعتقاد الجازم الذي نحمله عن المعلوم مطابق لحقيقته. وفي غياب الوحي الذي يحتوي على علم يقيني فإن البشرية عاجزة عن الاهتداء إلى منهجية تمكنها من إرساء علومها على قاعدة يقينية. وأفضل ما توصلت إليه في هذا الشان هو المنهج الاستقرائي التجريبي القائم على الملاحظة الحسية والرصد والتصنيف ثم التجربة، ولكنه ظل عاجزاً عن مد البشر بعلم يقيني، حتى في المجال الذي حقق فيه نجاحاً باهراً، ألا وهو مجال المادة. وبسبب هذا القصور الذاتي في منهجية المعرفة البشرية ظل رصيدها من العلم، بل وقدرتها على اكتساب العلم، عرضة للشك والزعزعة من قبل كبار العلماء والفلاسفة الغربيين.

ولكن الله تعالى أثبت في الآيات (١) و (٢) أعلاه أن العلم بظاهر الحياة الدنيا(علم السنن الكونية) ممكن تحصيله من قبل الدنيويين. والحق يقال إن المنهج الإستقرائي الظني قد مكن البشرية من اكتشاف الكثير من الحقائق

الكونية التي أدت إلى انفجار العلوم الطبيعية والتكنولوجيا الحديثة. والظن الراجح الذي انبنى عليه العلم الطبيعي ليس ظنا في الحقيقة العلمية المكتشفة، ولا في الاعتقاد الجازم الذي نحمله عن تلك الحقيقة، ولكنه ظن في المنهج بحيث لا يمكّن العالِم من أن يدعي اليقين التبريري البرهاني في علمه حتى وإن وصل إلى درجة اليقين الكشفي الإلهامي. إذاً قولنا إن العلم البشري ظني يُغۡنِي لَا ٱلظَّنَّ إِنَّ ظَنًّا إِلَّا أَكۡثَرُهُمۡ يَتَّبِعُ وَمَالا ينفي أو يناقض القاعدة القرآنية: ( )(يونس)، ذلك أن الحقيقة العلمية في ذاتها لا يمكن أن تكون ﴿٣٦﴾ شَيۡـًٔا ٱلۡحَقِّ مِنَ ظنية، والفرضية التي أدت إلى اكتشافها لا يمكن أن تصنف كعلم إلا إذا صادفت في افتراضها كبد الحقيقة التي يسندها تراكم التجارب الواقعية المؤيدة. والظن الراجح وحده لن يكفي لتحويل الفرضية إلى علم ولا متعلقها إلى حق، إلا إذا كان الحق أصلاً موجودا وصادفته الفرضية، ويظل الظن المنهجي يحكم العالِم وحده، لا الحق الذي يطلبه.

وخلاصة القول إن الذي نفهمه من الآيات القرآنية السابقة المتعلقة بمحتوى العلم هو أن العلم البشري المبتوت عن الوحي يقوم علي الظن، وأن المجالات المحدودة التي أمكن الوصول فيها إلى علم باستخدام مناهجه، ظل هذا العلم قاصراً على ظاهر الحياة الدنيا، ومسخراً لخدمة أهدافها، ولم يسخر للارتقاء بالبشرية نحو كمالها الذي هو العلم بالله تعالى وعبادته.

٣,٢,٤,١- العالِم:

(١) (إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾)(النحل)؛

(٢) (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾)(غافر)؛

(٣) (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾)(ص)؛

(٤) (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾)(الأنبياء)؛

(٥) (كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾)(العلق)؛

(٦) (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾)(محمد)؛

(٧) (لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)(النحل)؛

(٨) (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾)(الجاثية)؛

(٩) (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾)(الفرقان).

يخبرنا القرآن الكريم أن من قال: **(إن هي إلا حياتنا الدنيا)** إنما اختار في حقيقة الأمر أن يصرف همته إلى تعظيم متاعها. فهو إذن شخص لاه القلب، وغافل عن حقيقة الحياة الدنيا. يستوي في هذا الأمر الجاهل وعالم الفيزياء من الدنيويين. والدنيوي في القرآن شخص تمكنت من نفسه أخلاق الفجور، قد استحب العمى على الهدى، فهو مستكبر، معرض عن الحق، فرح بِمُسْتَيْقِنِينَ نَحْنُ وَمَا ظَنًّا إِلَّا نَظُنُّ إنابما عنده من العلم، وغرّه الغرور فقال: ( )(الجاثية).﴿٣٢﴾

٤,٢,٤,١- المنهجية :

إن المبدأ الحاكم في منهجية ومنهاج تحصيل العلم، سواء كان العالم مؤمناً أم لَكُمُ وَجَعَلَ شَيۡـًٔا تَعۡلَمُونَ لَا أُمَّهَٰتِكُمۡ بُطُونِ مِّنۢ أَخۡرَجَكُم وَٱللَّهُكافراً هو قوله تعالى: ( )(النحل). ونلاحظ أن القرآن الكريم ﴿٧٨﴾ تَشۡكُرُونَ لَعَلَّكُمۡ ۙ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ٱلسَّمۡعَ يربط بين هذه الوسائل الإدراكية المعنوية وبين أعضاء الجسد الثاوية فيها بغرض الإدراك، فالسمع متعلق بالأذن، والبصر متعلق بالعين، والفؤاد متعلق بالقلب الذي في الصدر. فوسائل العلم عند جميع البشر متساوية من حيث المبدأ، وهي الحواس زائداً الفؤاد، ولكن قوة إدراك هذه الوسائل يعتمد على أحوال القلب، وأحوال القلب تعتمد على موقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا، وموقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا يعتمد على موقفه من الإيمان بالله تعالى، وعلى مقدار إيمان من آمن، أي بموقفه ومقدار إيمانه بالدار الآخرة بنعيمها وجحيمها، ومن ثم مقدار تزكيته لنفسه، وتطهيره لقلبه من فاسد الأخلاق والأعمال التي تحجبه عن إدراك حقيقة الكون كما فَإِنَّهَا بِهَا يَسۡمَعُونَ ءَاذَانٌ أَوۡ بِهَآ يَعۡقِلُونَ قُلُوبٌ لَهُمۡ فَتَكُونَ ٱلۡأَرۡضِ فِي يَسِيرُواْ أَفَلَمۡهي عليه: (يَتَدَبَّرُونَ أَفَلَا)(الحج)؛ (﴿٤٦﴾ ٱلصُّدُورِ فِي ٱلَّتِي ٱلۡقُلُوبُ تَعۡمَى وَلَٰكِن ٱلۡأَبۡصَٰرُ تَعۡمَى لَا يَكۡسِبُونَ كَانُواْ مَّا قُلُوبِهِم عَلَىٰ رَانَ بَلۡ كَلَّاۖ)(محمد)؛ (﴿٢٤﴾ أَقۡفَالُهَآ قُلُوبٍ عَلَىٰ أَمۡ ٱلۡقُرۡءَانَ عَذَابٌ وَلَهُمۡ غِشَٰوَةٌ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ وَعَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ عَلَىٰ ٱللَّهُ (خَتَمَ)(المطففين)؛ (﴿٧﴾ فَمَآ وَأَفۡـِٔدَةً وَأَبۡصَٰرٗا سَمۡعٗا لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهِ مَكَّنَّٰكُمۡ إِن فِيمَآ مَكَّنَّٰهُمۡ وَلَقَدۡ)(البقرة)؛ (﴿٢٦﴾ عَظِيمٌ وَحَاقَ ٱللَّهِ بِـَٔايَٰتِ تَجۡحَدُونَ كَانُواْ إِذۡ شَيۡءٖ مِّن أَفۡـِٔدَتُهُم وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ سَمۡعُهُمۡ عَنۡهُمۡ أَغۡنَىٰ)(الأحقاف). ﴿٢٦﴾ يَسۡتَهۡزِءُونَ بِهِۦ كَانُواْ مَّا بِهِم

إذن فالمنهجية المعرفية عند الدنيويين، بحسب ما ورد في القرآن، ينقصها بعد أساس، ألا وهو القلب الذي يفقه ويعقل. وهذا القصور المنهجي إنما هو ناجم عن موقف قيمي جعل من تعظيم متاع الحياة الدنيا هدفا وقيمة عليا في الحياة، وأنكر الدار الآخرة، وادعى لنفسه رغم ذلك الحياد والموضوعية. وهذا الموقف القيمي حرم الدنيوي من المصدر الوحيد الذي يمده بكليات علمية مقطوع بصدقها يقينا، ألا وهو الوحي. ومن ثم فإن الكليات العلمية عند الدنيوي إنما تقوم على الفرض والتخمين في المنهج الاستنباطي، أو التعميم المؤسس على التجريد الاستقرائي الناجم عن الملاحظة الجزئية، السمعية والبصرية، القاصرة بحكم الموقف القيمي المسبق. وهكذا فإنّ الظن وليس اليقين هو أهم سمة تميز منهجية البحث العلمي عند العالِم الدنيوي. والظن هنا يأتي من عدة مصادر منها عدم قدرة وسائل الحس على نقل حقيقة المحسوسات كما هي، ومنها عدم وجود اللغة البشرية المجرّدة من التعميمات والإبهام بحيث يمكنها التعبير عن المشاهدات الحسية كما هي، ومنها عدم القدرة على الإحاطة بكل جزئيات الظاهرة التي منها تستقرأ الكليات.

٥,٢,٤,١ – التطبيقات:

ٱلۡأَمۡوَٰلِ فِي وَتَكَاثُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَفَاخُرُۢ وَزِينَةٞ وَلَهۡوٞ لَعِبٞ ٱلدُّنۡيَا ٱلۡحَيَوٰةُ أَنَّمَا ٱعۡلَمُوٓاْ(١) (يَكُونُ ثُمَّ مُصۡفَرّٗا فَتَرَىٰهُ يَهِيجُ ثُمَّ نَبَاتُهُۥ ٱلۡكُفَّارَ أَعۡجَبَ غَيۡثٍ كَمَثَلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ٱلدُّنۡيَآ ٱلۡحَيَوٰةُ وَمَا وَرِضۡوَٰنٞ ٱللَّهِ مِّنَ وَمَغۡفِرَةٞ شَدِيدٌ عَذَابٌ ٱلۡأٓخِرَةِ وَفِي حُطَٰمٗا ٱلۡغُرُورِ مَتَٰعُ إِلَّا)(الحديد)۝٢٠

أَفَلَا ۚ يَتَّقُونَ لِّلَّذِينَ خَيۡرٌ ٱلۡأٓخِرَةُ وَلَلدَّارُ ۖ وَلَهۡوٞ لَعِبٞ إِلَّا ٱلدُّنۡيَآ ٱلۡحَيَوٰةُ وَمَا(٢) (
)(الأنعام)﴿٣٢﴾ تَعۡقِلُونَ

)(الأنبياء)﴿٢﴾ يَلۡعَبُونَ وَهُمۡ ٱسۡتَمَعُوهُ إِلَّا مُحۡدَثٖ رَّبِّهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن يَأۡتِيهِم مَا(٣) (

إن الآيات الكريمة السابقة تخبرنا أن رؤية العالم الدنيوية إنما تقوم على تعظيم متاع الحياة الدنيا، التي في جوهرها لهو ولعب، وتكاثر في الأموال والأولاد. إذن فإن الهدف الأساس من العلم في النموذج المعرفي الدنيوي هو اكتشاف سنن الكون، ثم ترويضه واستغلاله لإشباع شهوات الإنسان من متاع الحياة الدنيا. وهذه النتيجة تطابق تماماً جوهر الحضارة الغربية المعاصرة، سواء كان على مستوى الفكر أو التطبيق.

٥,١- مثال من القرآن: الظاهرة السبئية حالة تفسيرية:

لعل خير مثال نسوقه لندلل به على الفرق بين تفسير النسق المعرفي التوحيدي للظواهر الكونية وذلك الدنيوي هو ما أورده القرآن الكريم في سورة سبأ عن انهيار سد مأرب وما سبقه وما تبعه من ظواهر طبيعية وإنسانية، وكيفية تفسيرها. ولقد أطلقنا عليها ظاهرة لأنها تظل تتكرر إلى زماننا هذا، وبوتيرة متسارعة، مما يضفي على تفسيرها القرآني أهمية خاصة في إطار النموذج المعرفي التوحيدي. جاء في هذا الخصوص قوله تعالى: (لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةُۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾

وَبَيْنَ بَيْنَهُمْ وَجَعَلْنَا ﴿١٧﴾ ٱلْكَفُورَ إِلَّا نُجَٰزِيٓ وَهَلْ ۖ كَفَرُواْ بِمَا جَزَيْنَٰهُم ذَٰلِكَ ﴿١٨﴾ قَلِيلٍ سِدْرٍ مِّن ﴿١٩﴾ ءَامِنِينَ وَأَيَّامًا لَيَالِيَ فِيهَا سِيرُواْ ۖ ٱلسَّيْرَ فِيهَا وَقَدَّرْنَا ظَٰهِرَةً قُرًى فِيهَا بَٰرَكْنَا ٱلَّتِي ٱلْقُرَى فِي إِنَّ ۚ مُمَزَّقٍ كُلَّ وَمَزَّقْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَنفُسَهُمْ وَظَلَمُواْ أَسْفَارِنَا بَيْنَ بَٰعِدْ رَبَّنَا فَقَالُواْ مِّنَ فَرِيقًا إِلَّا فَٱتَّبَعُوهُ ظَنَّهُۥ إِبْلِيسُ عَلَيْهِمْ صَدَّقَ وَلَقَدْ ﴿٢٠﴾ شَكُورٍ صَبَّارٍ لِّكُلِّ لَأٓيَٰتٍ ذَٰلِكَ فِي مِنْهَا هُوَ مِمَّنْ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُ مَن لِنَعْلَمَ إِلَّا سُلْطَٰنٍ مِّن عَلَيْهِم لَهُۥ كَانَ وَمَا ﴿٢١﴾ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ حَفِيظٌ شَىْءٍ كُلِّ عَلَىٰ وَرَبُّكَ ۖ شَكٍّ)

دعونا الآن نعيد سرد الوقائع القرآنية بأسلوب أهل الأرض ثم ندعو كلا من النموذجين المعرفيين، الدنيوي والتوحيدي، ليعطيانا تفسيراً علمياً للظواهر الواردة في الآيات الكريمة. لقد كانت هناك، في قديم الزمان، قبائل تسكن في أرض قيل إنها اليمن، ولقد تمكنت تلك القبائل من إقامة مملكة ذات حضارة تسمى مملكة سبأ. ولقد تمكنت تلك المملكة من إنشاء سد عظيم تجمعت فيه مياه الأمطار عبر الزمان مما مكّن من زراعة رياض غناء وبساتين فيها كل أنواع الفواكه والثمار. وكانت لهؤلاء القوم تجارة مع بلاد الشام والحجاز يستغرق السفر فيها زمناً طويلا، ولكن وجود القرى الكثيرة على الطريق جعل سفرهم أكثر أمنا وأقل مشقة. وهكذا سارت الحياة بأولئك القوم هادئة وادعة ردحاً من الزمن، ثم فجأة تبدل كل شييء حينما اجتاح سيل كاسح السد فانهار، وتبعته ظواهر بيئية جديدة، فقد أجدبت الأرض ولم تعد تنبت إلا ثماراً صحراوية لا يستساغ مذاقها مقارنة بثمار ما كان من قبل. وصاحب كل ذلك

نزوح وهجرات فردية وجماعية لأولئك القوم إلى مختلف أنحاء الأرض، مما أدى إلى تمزق المجتمع والجماعات وتشريدها.

هذا باختصار مضمون القصة القرآنية، ونلاحظ أن هناك ظواهر طبيعية وإنسانية تلاحقت خلال هذه القصة، فهناك سد قد انهار، وأرض أجدبت بعد اخضرار، وأسر تشتت بعد استقرار، واقتصاد انهار بعد إعمار. وجميع هذه الظواهر التي حدثت لأولئك القوم تعيش البشرية وقائعها الأليمة في عصرنا هذا، وبوتيرة متسارعة، بل لعلها تحتل موقع الصدارة في قائمة هموم البشرية اليوم. لذلك فإنّ التفسير العلمي السليم لها يكتسب أهمية عملية تتجاوز مجرد التمرين الأكاديمي الذي نحن بصدده.

والآن لنطلب من المدرسة الوضعية الدنيوية إرسال فريق من علمائها لدراسة الظاهرة السبئية، وإيجاد تفسير علمي لأسباب حدوثها، وما ينبغي على البشرية أن تفعله حتى تتفادى حدوث كارثة كهذه. من المرجّح أن يضم الفريق العلمي للنموذج المعرفي الدنيوي علماء في الهندسة، والجيولوجيا، والمناخ، والبيئة، والزراعة، والاقتصاد والدراسات السكانية، والاجتماع وغيرهم ممن لهم علاقة بتلك الظواهر. وسوف يكون من مسلمات النموذج اللازمة للدراسة لهؤلاء العلماء ما يلي:

١- أن يكون الباحث محايداً قيمياً، بمعنى أن لا يحمل أي أفكار قيمية مسبقة عما حلّ بسبأ، بل عليه أن يأخذ جميع معطياته التحليلية مما يشاهده ويعايشه في موقع دراسته فقط؛
٢- عدم إقحام أي أبعاد غيبية في تفسيره لتلك الظاهرة؛
٣- البحث عن قوانين طبيعية ومنتظم عادات سلوكية واجتماعية عامة تبنى حولها نظريات يمكن أن تندرج تحتها الظواهر موضوع الدراسة؛
٤- الوصول إلى نتائج يمكن البرهنة عليها تجريبياً.

الآن نلقي نظرة على التقرير العلمي لعلماء الدنيوية الوضعية عن الظاهرة السبئية. إن علماء الهندسة سوف يبحثون عن أسباب انهيار السد في القوانين الهندسية والفيزيائية التي على أساسها بني السد، وإمكانية وجود خطأ ما في النسب التي بها خلطت مواد البناء، وقوة مقاومتها لضغط التيار المائي، وعمر السد الافتراضي، والزوايا الهندسية المناسبة..إلخ. وعلماء الجيولوجيا سوف يبحثون في طبيعة التربة والصخور التي منها بني السد..إلخ. والراجح أن يعلل هؤلاء العلماء انهيار السد بخطأ معماري أو جيولوجي من نوع ما، وسوف تكون توصيتهم هي مراعاة عدم الوقوع في مثل تلك الأخطاء مستقبلاً.

أما علماء البيئة والمناخ المنوط بهم دراسة الأسباب التي أدت إلى أن تتبت الأرض شوكاً بعد أن كانت تنبت ربما تينا وزيتونا، فغالباً ما يبحثون عن الأسباب في التغيير الذي طرأ على المكونات الغذائية للنبات في التربة في

أرض سبأ، والتغييرات المناخية المفاجئة التي جعلت البيئة أصلح للسدر منها للتين والزيتون..إلخ. وربما يوصون بضرورة إضافة أسمدة من نوع ما، وإدخال دورة زراعية بطريقة معينة، والاستفادة من المياه الجوفية إن وجدت، إن أردنا أن نعيد الزراعة (Green Houses)بل وحتى استخدام المباني الخضراء في سبأ سيرتها الأولى.

أما علماء الاقتصاد والسكان فسوف يرجعون أسباب انهيار الاقتصاد السبئي والهجرات السكانية التي تلت ذلك إلى تناقص الإنتاج بصورة حادة ومفاجئة نتيجة لانهيار السد. ونتيجة لانهيار سوق العمل بسبب خراب القطاع الإنتاجي، وارتفاع أسعار السلع الغذائية نتيجة للنقص الحاد في الغذاء، وما تلا ذلك من معيشة ضنكة، هاجرت الأيدي العاملة القوية للبحث عن مصادر رزق في أماكن أخرى، مما أدى إلى المزيد من إضعاف البنية الاقتصادية، إنتاجاً واستهلاكاً. وربما حلّت المجاعة نتيجة كل ذلك فمات من مات وهاجر من هاجر. أما التوصيات فغالباً ما تربط إعادة الحياة الإقتصادية والسكانية سيرتها الأولى بضرورة إعادة بناء السد، وقيام المشاريع الزراعية التي كانت من قبل.

هذا في مجمله ما نتوقعه من تقرير النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي في دراسته ومعالجاته للظاهرة السبئية. وهو تقرير كما نرى يستوفي جل، إن لم يكن كل، شروط البحث العلمي الذي تقرره المدرسة الوضعية. ولكن يبقى السؤال: تُرى لو كان قد تدارك أهل سبأ جميع الأخطاء التي ذكرها تقرير علماء الوضعية، أو

أعادوا ترتيب أمورهم من جديد بناء على تلك التوصيات، هل كان ذلك يقلل من احتمال إنهيار السد أمام الضغط المائي المتولد عن سيل العرم الجارف؟.

إن الإجابة على هذا السؤال، بناءً على معطيات النموذج المعرفي الدنيوي، هي "نعم" حاسمة، ولكنها "لاء" نافية بناء على معطيات النموذج المعرفي التوحيدي، كما تقررها آيات القرآن الكريم موضوع الحديث. فكيف يا ترى يفسر النموذج المعرفي التوحيدي الظاهرة السبئية؟.

لقد قلنا من قبل إن العلم المتعلق بالسنن الطبيعية والاجتماعية في النموذج التوحيدي له دوران؛ عقدي ووظيفي، أما الدور العقدي فيتعلق بلفت انتباه الإنسان إلي الفعل الإلهي المهيمن في الظاهرة موضوع الدراسة؛ أي إلى (الآية) بلغة القرآن، إما كدليل على الفاعل لتوحيده، أو للاعتبار طمعا في وعده وخوفا من وعيده. وأما الدور الوظيفي فيتعلق بتوظيف تلك السنن من أجل تحقيق المعايش والعمران في الأرض. وغالب ورود السنن في القرآن مصوّب نحو دورها العقدي. لذلك نجد أن القرآن الكريم في تفسيره للظاهرة السبئية، في إطار النموذج التوحيدي، بدأ بتحديد الإطار التفسيري المناسب، وذلك في قوله تعالى: (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية)، فورود كلمة آية في إطار ظاهرة كونية في القرآن الكريم يضع الظاهرة في إطار سببي غيبي موصول بخالق الأكوان سبحانه و**بخطة الخلق العامة**، ومن ثم يخرجها من دائرة السببية المادية الصلبة، على قول (المسيري)، التي هي من سمات

النموذج المعرفي الدنيوي. والآية التي كان على قوم سبأ الانتباه لها هي طبيعة الابتلاء الثاوي في **خطة الخلق العامة**، القائم على الفتنة في زينة الحياة الدنيا(المال،البنون)، ومقتضيات ذلك الإبتلاء. فالجنان الوارفة التي تحفهم عن يمين وشمال، والسد المنتصب وقد امتلأ بالماء، والمال الوفير المتدفق من تجارتهم مع الحجاز والشام، والحياة الطيبة التي كانوا يعيشونها بسبب تلك النعم، كل ذلك إنما يرد تفسيره في سلسلة من آيات الذكر الحكيم نذكر منها
عَمَلاً أَحْسَنُ أَيُّهُمْ لِنَبْلُوَهُمْ لَّهَا زِينَةً ٱلْأَرْضِ عَلَى مَا جَعَلْنَا إِنَّاقوله تعالى: (
عِندَ خَيْرٌ ٱلصَّٰلِحَٰتُ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ۖ ٱلدُّنْيَا ٱلْحَيَوٰةِ زِينَةُ وَٱلْبَنُونَ ٱلْمَالُ)(الكهف)؛ (﴿٧﴾
أَجْرٌ عِندَهُۥٓ وَٱللَّهُ ۚ فِتْنَةٌ وَأَوْلَٰدُكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ إِنَّمَآ)(الكهف)؛ (﴿٤٦﴾ أَمَلاً وَخَيْرٌ ثَوَابًا رَبِّكَ
فِى لَهُمْ نُسَارِعُ ﴿٥٥﴾ وَبَنِينَ مَّالٍ مِن بِهِۦ نُمِدُّهُم أَنَّمَا أَيَحْسَبُونَ)(التغابن)؛ (﴿١٥﴾ عَظِيمٌ
﴿١٠﴾ غَفَّارًا كَانَ إِنَّهُۥ رَبَّكُمْ ٱسْتَغْفِرُوا۟ فَقُلْتُ)(المؤمنون)؛ (﴿٥٦﴾ يَشْعُرُونَ لَّا بَل ۚ ٱلْخَيْرَٰتِ
لَّكُمْ وَيَجْعَل جَنَّٰتٍ لَّكُمْ وَيَجْعَل وَبَنِينَ بِأَمْوَٰلٍ وَيُمْدِدْكُم ﴿١١﴾ مِّدْرَارًا عَلَيْكُم ٱلسَّمَآءَ يُرْسِلِ
عَذَابِى إِنَّ كَفَرْتُمْ وَلَئِن ۖ لَأَزِيدَنَّكُمْ شَكَرْتُمْ لَئِن رَبُّكُمْ تَأَذَّنَ وَإِذْ)(نوح)؛ (﴿١٢﴾ أَنْهَٰرًا
قَالَ إِبْلِيسَ إِلَّآ فَسَجَدُوٓا۟ لِءَادَمَ ٱسْجُدُوا۟ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ قُلْنَا وَإِذْ)(إبراهيم)؛ (﴿٧﴾ لَشَدِيدٌ
إِلَىٰ أَخَّرْتَنِ لَئِنْ عَلَىَّ كَرَّمْتَ ٱلَّذِى هَٰذَا أَرَءَيْتَكَ قَالَ ﴿٦١﴾ طِينًا خَلَقْتَ لِمَنْ ءَأَسْجُدُ
فَإِنَّ مِنْهُمْ تَبِعَكَ فَمَن ٱذْهَبْ قَالَ ﴿٦٢﴾ قَلِيلاً إِلَّا ذُرِّيَّتَهُۥٓ لَأَحْتَنِكَنَّ ٱلْقِيَٰمَةِ يَوْمِ
عَلَيْهِم وَأَجْلِبْ بِصَوْتِكَ مِنْهُم ٱسْتَطَعْتَ مَنِ وَٱسْتَفْزِزْ ﴿٦٣﴾ مَّوْفُورًا جَزَآءً جَزَآؤُكُمْ جَهَنَّمَ
إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُهُمُ وَمَا ۚ وَعِدْهُمْ وَٱلْأَوْلَٰدِ ٱلْأَمْوَٰلِ فِى وَشَارِكْهُمْ وَرَجِلِكَ بِخَيْلِكَ

)(الإسراء)؛ ﴿١٦﴾ وَكِيلاً بِرَبِّكَ وَكَفَى ۚ سُلْطَٰنٌ عَلَيْهِمْ لَكَ لَيْسَ عِبَادِى إِنَّ ﴿١٦﴾ غُرُورًا وَمِنْ أَيْدِيهِمْ بَيْنِ مِّنْ لَأَتِيَنَّهُم ثُمَّ ﴿١٦﴾ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَكَ لَهُمْ لَأَقْعُدَنَّ أَغْوَيْتَنِى فَبِمَآ قَالَ( )(الأعراف). ﴿١٧﴾ شَٰكِرِينَ أَكْثَرَهُمْ تَجِدُ وَلَا ۖ شَمَآئِلِهِمْ وَعَن أَيْمَٰنِهِمْ وَعَنْ خَلْفِهِمْ

أما العمل الحسن أو الصالح المطلوب من قوم سبأ في هذا المقام فهو عَن جَنَّتَانِ ۖ ءَايَةٌ مَسْكَنِهِمْ فِى لِسَبَإٍ كَانَ لَقَدْذلك الذي يؤدي إلى شكر النعمة: ( )(سبأ). ﴿١٥﴾ غَفُورٌ وَرَبٌّ طَيِّبَةٌ بَلْدَةٌ ۚ لَهُۥ وَٱشْكُرُوا۟ رَبِّكُمْ رِّزْقِ مِن كُلُوا۟ ۖ وَشِمَالٍ يَمِينٍ وفي إطار الآيات كمنهجية تفسيرية توحيدية فإن شكر النعمة أو كفرها تترتب لَئِن رَبُّكُمْ تَأَذَّنَ وَإِذْعليه سنن مضطردة في حياة الناس يلخصها قوله تعالى: (ٱللَّهَ بِأَنَّ ذَٰلِكَ)(إبراهيم)؛ (﴿٧﴾ لَشَدِيدٌ عَذَابِى إِنَّ كَفَرْتُمْ وَلَئِن ۖ لَأَزِيدَنَّكُمْ شَكَرْتُمْ عَلِيمٌ سَمِيعٌ ٱللَّهَ وَأَنَّ ۙ بِأَنفُسِهِمْ مَا يُغَيِّرُوا۟ حَتَّىٰ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْعَمَهَا نِّعْمَةً مُغَيِّرًا يَكُ لَمْ ٱلْقِيَٰمَةِ يَوْمَ وَنَحْشُرُهُۥ ضَنكًا مَعِيشَةً لَهُۥ فَإِنَّ ذِكْرِى عَن أَعْرَضَ وَمَنْ)(الأنفال)؛ (﴿٥٣﴾ حَيَوٰةً فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ مُؤْمِنٌ وَهُوَ أُنثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ مِّن صَٰلِحًا عَمِلَ مَنْ)(طه)؛ (﴿١٢٤﴾ أَعْمَىٰ وَمَآ)(النحل)؛ وفي قوله: (﴿٩٧﴾ يَعْمَلُونَ كَانُوا۟ مَا بِأَحْسَنِ أَجْرَهُم وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ۖ طَيِّبَةً يَغْشُ وَمَن)(الشورى)؛ (﴿٣٠﴾ كَثِيرٍ عَن وَيَعْفُوا۟ أَيْدِيكُمْ كَسَبَتْ فَبِمَا مُّصِيبَةٍ مِّن أَصَٰبَكُم ٱلسَّبِيلِ عَنِ لَيَصُدُّونَهُمْ وَإِنَّهُمْ ﴿٣٦﴾ قَرِينٌ لَهُۥ فَهُوَ شَيْطَٰنًا لَهُۥ نُقَيِّضْ ٱلرَّحْمَٰنِ ذِكْرِ عَن)(الزخرف).﴿٣٧﴾ مُّهْتَدُونَ أَنَّهُم وَيَحْسَبُونَ

إذن عندما فسرت الآيات ما حاق بقوم سبأ من كوارث طبيعية وإنسانية إنما كانت تستصحب معها هذه السنن الإلهية المضطردة التي تحكم العلاقة بين أفعال الناس في تعاملهم مع زينة الحياة الدنيا، شكراً أو كفراً، وبين ما يكتنفهم من ظواهر كونية، إيجاباً وسلباً. لذلك فإن القرآن الكريم إنما فسر انهيار السد بإعراض قوم سبأ عن شكر الله على نعمه السابغة عليهم، ظاهرة وباطنة، فأرسل عليهم سيل العرم(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) كنتيجة لازمة لسنته التي بيّنها في قوله: (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)، وبدّل جنتيهم الغنيتين بأخريين فقيرتين تحقيقا لسنته: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(الأنفال). وقيّض لهم الشياطين تؤزّهم أزّا كنتيجة لسنته التي لا تحويل لها ولا تبديل: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين)، وقد دل على ذلك ختمه تعالى لقصة سبأ بتصديق إبليس ظنه فيهم فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. وإبليس وذريته من الشياطين طرف أصيل وعنصر أساس في خطة الخلق العامة بتفاصيلها التي سلفت. ونفس التحليل يصدق على كارثة النزوح واللجوء السكاني التي أصابت قوم سبأ: (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)(سبأ). وينبغي أن نلاحظ أن النموذج التوحيدي قادر على أن يقول إن سيل العرم أُرسل قصدا من قِبَل من هو قاهر فوق عباده لتدمير حياة سبأ، ولن يستطيع النموذج الدنيوي أن يدعي ذلك أبدا.

وهكذا نرى أن العلاقات السببية التي أوردها النموذج المعرفي التوحيدي في تفسير الظاهرة السبئية لجد مختلفة عن تلك التي أمدنا بها النموذج المعرفي الدنيوي. لهذا نستطيع أن نقول إنه ما لم تنتف الأسباب التي أوردها النموذج المعرفي التوحيدي في تعليل الظاهرة السبئية فإن انتفاء الأسباب التي أوردها النموذج الوضعي الدنيوي وحدها لم ولن يكون كافياً لزوال ما أصاب قوم سبأ من كوارث، ناهيك عن ضمان عدم وقوعها أصلاً. وهذا يعني أن السياسات الاصلاحية التي سوف يوصي بها النموذج التوحيدي، في إطار تفسيره للظواهر الاجتماعية والطبيعية، سوف تتمدد في المجالين العقدي(الغيبي) والوظيفي(السنني).

إن العلاقات السببية التي أوردها القرآن الكريم في تفسير الظاهرة السبئية ما كان لها أن تكتشف أبداً في إطار الرؤية الكونية الدنيوية، لأنها لا تراوح ظاهر الحياة الدنيا، بينما السببية المندرجة في إطار النموذج التوحيدي لا تكشف عنها إلا الرؤية الكونية التوحيدية المبنية على معطيات الوحي الإلهي. إن هذه العلاقة السببية الهامة بين أفعال الناس من جهة، من حيث كونها شكراً أو كفراً بأنعم الله، وبين ما يكتنف حياتهم من ظواهر طبيعية واجتماعية، لهي عنصر مهم في تكامل العلوم الاجتماعية التوحيدية والعلوم الطبيعية في دراسة تلك الظواهر. مثل هذه المنهجية البحثية تؤدي إلى نتائج أكثر صدقاً، ومن ثم

أكثر علمية؛ والسياسات الإصلاحية التي تتبني عليها أحكم وقعا، وأبعد مدى، وأكثر استدامة من تلك التي تتأتى من تفسيرات وتوصيات النموذج المعرفي الدنيوي. ولكن هذا لا يتأتى إلا في إطار الرؤية الكونية التوحيدية المستقاة من علوم الوحي، مما يؤدي إلى مزج السببية الصلبة القائمة على القوانين الفيزيائية بتلك السببية "السائلة" القائمة على السنن المعنوية التي بينها الوحي، في إطار نسق معرفي متكامل ومتجانس.

والطريف حقاً هو أن عامة المسلمين يستخدمون السببية التي أشرنا إليها سابقاً بكثرة في تفسيرهم اليومي للظواهر والأحداث التي تكتنف حياتهم، ولا تصرفهم التفسيرات المؤسسة على العلوم الغربية الحديثة، طبيعية واجتماعية، عن حقيقة الأمر الإلهي الذي هو وراء كل ظاهرة، وكل حدث. ولكن الأبحاث العلمية التي يقوم بها علماء المسلمين من خريجي المدرسة الوضعية الدنيوية تخلوا تماماً من الإشارة إلى هذا النوع من العلاقات السببية التي يتكامل فيها علما الخبر الغيبي والمختبر الحسّي. والسبب في ذلك طبعاً أن المنهجية الوضعية لا مكان فيها لما لا يمكن ضبطه بوسائل الحس من ملاحظة وتجربة.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن العلاقات السببية المبنية على السنن الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية، التي أوردناها في إطار النموذج الدنيوي، ليست جزءاً من العلاقات السببية للنموذج التوحيدي، ولكنا أوردنا

السنن المعنوية الكلية التي اقتصر عليها القرآن في تفسير الظاهرة السبئية لنبين مدى الزيادة في العلاقات السببية التي يتميز بها النموذج المعرفي التوحيدي عن نظيره الدنيوي. ويمكن أن نجمل هذه المقارنة بين النموذجين المعرفيين، من خلال تفسير كل منهما للظاهرة السبئية، في النتيجة الآتية:

النموذج المعرفي التوحيدي يستوعب ويتجاوز النموذج المعرفي الدنيوي:

إن النموذج المعرفي التوحيدي وهو يفسر الظواهر التي تنجم عن أفعال الناس، أو تكتنف حياتهم وهم يتدافعون في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من متاعها، يأخذ في الاعتبار، أولاً؛ السنن الإلهية الكلية الحاكمة التي بنيت على تعامل الناس مع نعم الله، شكراً أو كفراً، كتلك التي فسر الله تعالى بها الظاهرة السبئية. ثم، ثانيا؛ يتدرج في إيراد الأسباب الحسية المبنية على السنن الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية، التي تبدو للناس عادة أنها المسئولة مباشرة عن وقوع الظواهر. فكأنّ السنن المعنوية الكلية التي أوردها القرآن هي المسئولة حقيقة عن الظاهرة السبئية، وما يجييء على شاكلتها من ظواهر، بينما السنن الطبيعية ومنتظم أنماط الفعل والعادات الاجتماعية لا تعدوا أن تكون آليات لوقوع أقدار الله المترتبة على دخول الناس بأفعالهم الإرادية في مجال عمل كل أو بعض تلك السنن المعنوية الكلية. ولا يقلل هذا بالطبع من قيمة السنن الحسية كأساس

ومجال للفعل البشري الإرادي في تعامله مع زينة الحياة الدنيا. ذلك أنه بمقتضى هذه السنن يتم الهروب من قدر من أقدار الله إلى آخر ألطف منه؛ من الفقر إلى الغنى، من الخوف إلى الأمن، من الجوع إلى الإطعام، من العري إلى الكساء، من المرض إلى العافية، ومن الحر إلى الظل...الخ، والخروج من سنة معنوية كلية مثل سنة الكفر والدخول في أخرى مثل سنة الشكر، كل ذلك في إطار الابتلاء الثاوي في خطة الخلق العامة الذي تقوم عليه حياة البشر في هذه الأرض، وبكسبهم الاختياري فيه يحاسبون.

إنّ العالِم المسلم، سواء كان طبيعياً أم اجتماعياً، عندما يقبل على دراسة الظواهر السالبة التي تحيط بالناس كالزلازل، الفيضانات، المجاعات، الجفاف والتصحر، تلوث البيئة، الأمراض البدنية والاجتماعية، الحروب..إلخ، أو على دراسة الظواهر الموجبة في كل مظاهر زينة الحياة الدنيا كوفرة في الإنتاج وغزارة في الأمطار وحظ وافر من العلم والتكنولوجيا وعافية في النفس والبدن..إلخ، لابد أن يستصحب معه النظام المعرفي التوحيدي الذي تتكامل فيه العلاقات السببية. تلك العلاقات السببية التي تجعل العلاقة بين الإنسان وبين خالقه، من حيث الأمر والنهي، والإذعان والعصيان، في قلب الأسباب ومن ثم الدراسة.

ويبقى التحدي الكبير في كيفية بناء نموذج معرفي توحيدي فعال تنسجم فيه العلاقات السببية الكلية والجزئية، المعنوية والحسية، بحيث يستطيع عالم الإقتصاد

المسلم، مثلاً، أن يدرس أسباب اللجوء والنزوح والهجرات السكانية والخراب الاقتصادي الذي حل بقوم سبأ فيحدد السنن المعنوية الكلية الحاكمة للظاهرة، وأنماط الفعل البشري الإرادي الراتب، في المجالين الطبيعي والإجتماعي، التي أدخلت الناس في مجال عمل هذه السنن الكلية، ومن ثم تقديم تفسير علمي تتكامل فيه السببيتان "الصلبة" و"السائلة". كذلك ينبغي أن يمكّنه هذا النموذج من تحديد السنن المعنوية الكلية البديلة التي يؤدي الدخول فيها إلى إصلاح الحال، وأنماط الفعل البشري التي ينبغي اتباعها، والسنن الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية التي يجب التزامها، بما يؤدي إلى تقديم توصيات ناجعة لمعالجة الأمر موضوع الدراسة. أما المنهج البحثي المتخصص الذي ينجم عن هكذا منهجية والذي ينبغي أن يتبعه الباحث المتخصص لإنجاز بحثه فهذا موضوع آخر لم تتناوله هذه الدراسة، ولكن قضاياه لا تقل أهمية عن القضايا التي بحثت هنا. ولكن من الواضح أن الاختلاف في منهجية النموذجين كما بيناه أعلاه سوف يؤدي بالضرورة إلى اختلاف جذري، وإن لم يكن كلي، في مناهج البحث، ذلك أن المدخل النظري في مقاربة موضوع البحث سوف يختلف كما لاحظنا من الظاهرة السبئية، وسوف يؤدي هذا الاختلاف إلى اختلاف في الفرضيات المتولدة عن تلكم النظريات وإلى اختلاف في طرائق إثباتها أو دحضها، كما سوف تختلف المتغيرات ذات الأهمية التفسيرية وروابطها، ومن ثم المتغيرات التي تقابلها في الواقع الدراسي، مما سوف يؤدي إلى اختلاف في نوع البيانات والمعلومات المناسبة التي يجب جمعها من الظاهرة، وقد يؤدي ذلك إلى

اختلاف في طرائق جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها...الخ. ومما لا شك فيه أن النموذج الدنيوي الوضعي فقير جدا في مدنا بالمعلومات الضرورية المتعلقة بدراسة الظواهر الاجتماعية إذا ما قورن بالنموذج التوحيدي، مما يعني ضعف قدرته التفسيرية تبعا لذلك.

نختتم هذا البحث بتلخيص مضمونه، ممثلا في أوجه الاتفاق والتباين بين النموذجين التوحيدي والدنيوي، في إطار النظام المعرفي الشامل للاجتماع الانساني الذي استنبطناه من القرآن الكريم في الصفحات السابقة، في الجدول أدناه. وتؤكد المقارنة أن النموذج التوحيدي يستوعب ويتجاوز النموذج الدنيوي في كل ما اصطلحنا على أنها أركان العلم الخمسة: المصدر؛ المحتوى؛ المنهجية؛ العالِم؛ الأهداف.

النموذج المعرفي التوحيدي والنموذج المعرفي الدنيوي

(دراسة مقارنة)

أركان العلم	النموذج المعرفي التوحيدي	النموذج المعرفي الدنيوي
المصدر	الله الوحي	– –

لجنة التغطية الالكترونية Online Publishing Committee

د. أشرف محمد عبدالله / أ.عبدالماجد محمد أحمد / أ.مصطفى حسن ابراهيم / أ.التجاني محمد احمد كرار

	الكون	الكون
المحتوى	*علم الغيب *علم الشهادة: – سنن طبيعية – سنن اجتماعية – أحكام قيمية	– *علم الشهادة: – سنن طبيعية – منتظم عادات اجتماعية –
المنـهجية	– سمع – بصر – فؤاد	– سمع – بصر –
العالِم	إنسان (مؤمن)	إنسان (كافر)
الأهداف	تعظيم العمل الصالح في الحياة الدنيا	تعظيم متاع الحياة الدنيا

الهوامش المرجعية:

(١) أنظر في هذا الإطار ورقة د. محمد الحسن بريمة : الرؤية الكونية القرآنية كأساس للعلوم الإجتماعية. كتاب سلسلة المنهجية الإسلامية(٣)، تحرير أ.د. عبد الله محمد الأمين وآخرين(٢٠٠٧)، إمام والتنوير المعرفي، السودان.

(٢) أنظر فيما يتعلق بمفهوم المنهجية والمنهج بحث فتحي حسن ملكاوي بعنوان: المنهاج والمنهاجية؛ في كتاب: المنهجية الإسلامية(ج١)؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي(٢٠١٠).

(٣) القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م، واشنجطن.

(4) troduction to the Theory of Knowledge, by D.G.O'conner and B Carr.,1982, University of Minnesota Press,

(٥) راجع موضوع النسبية المعرفية عند الغربيين في كتاب: Methodology for the Human Science, by D. Polkinghorne, 1983, State University of New York Press.

(٦) أنظر مكتبة المستلات للمعهدالعالمي للفكر الإسلامي، حزمة رقم (١) بعنوان: مفاهيم (الفكر-المنهجية_المعرفة_الثقافة_الحضارة). كذلك أنظر كتاب الدكتور إبراهيم أحمد عمر: العلم والإيمان (مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام). المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٠م.

(٧) أنظر فيما يتعلق برؤية العالم الإسلامية بحث عبد الحميد أبو سليمان بعنوان: الرؤية الكونية الحضارية؛ في كتاب: المنهجية الإسلامية؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي(٢٠١٠)؛ وكذلك

كتاب د. محمد مجذوب محمد صالح بعنوان:رؤية العالم في المفهوم الإسلامي: أسس نظرية في صنع السياسة الكونية المعاصرة؛ مركز دراسات الإسلام والعالم المعاصر(٢٠٠٨).

(٨) أنظر في موضوع النماذج التفسيرية بحث عبد الوهاب المسيري بعنوان: النماذج المعرفية الإدراكية والتحليلية؛ في كتاب: المنهجية الإسلامية (ج٢)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (٢٠١٠). وكذلك في ذات الكتاب أنظر بحث أ.د. علي ليلة بعنوان: النظرية الاجتماعية من منظور إسلامي: البحث عن نموذج تفسيري للمجتمع. أنظر أيضا في ذات الكتاب بحث أ.د. رفعت العوضي بعنوان: النموذج التفسيري الإسلامي للاقتصاد(رؤية مقارنة).